الجزء الثانى عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)

تفسير المفردات

الدابة: اسم لكل نَسَمَةٍ حية تَدِبُّ على الأرض زَحْفا، أوعلى قوائم ثنتين فأكثر، وغلب عرفا على مايُرْكَب من الخيل والبغال والحمير ، والدبُّ والدبيب : الانتقال الخفيف البطىء كدبيب الطفل والشيخ المسنّ والعقرب والمستقَر : مكان الاستقرار

من الأرض ، والمستودع : حيث كان مودعا قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة، والعرش : مركز نظام الملك ومصدر التدبير ، والبلاء : الاختبار والامتحان ، والأمة : الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » وأصلها الجماعة من نوع واحد أو دين واحد أو زمن واحد ، مصروفا عنهم : أى مدفوعا ومحبوسا ، وحاق: نزل وأحاط .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى الآيات السالفة شمول قدرته تعالى لكل شىء وإحاطة علمه بما يسرون ومايعلنون بما فى الصدور- قفى على فى ذلك بذكر مايهمُّ الناس من آثار قدرته ومتعلقات علمه ، وهو مايتعلق بحياتهم وشئونهم المختلفة ، ثم بذكر خلقه للعالم كله ، ومكان عرشه قبل هذا من ملكه ، وبلاء البشر بذلك ليَظْهر أيهُّم أحسن عملا ، ثم بعثه إياهم بعد الموت لينالوا جزاء أعمالهم مع إنكار الكفار لذلك وطلب استعجال العذاب الذى أوعدهم به مع بيان أنه واقع بهم لامحالة إن أصرّوا على كفرهم .

الايضاح

(وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) أى ومامن دابة من أى نوع من أنواع الدواب فى الأرض إلا على الله رزقها ، لافرق فى ذلك بين الجنةّ (المكروبات) التى لاترى بالأبصار ، وبين ضخام الأجسام ، والوسطى بين هذه وتلك ، وقد أعطى كلا خَلْقه المناسب لمعيشته ، ثم هداه إلى تحصيل غذائه بالغريزة والفطرة ، ولله تعالى حكم فى خلق كل نوع منها ، فإن خفى علينا أمر خلق الحيات والسنانير ونحوها ، فلنا أن نقول مثلا إنه لولاها لضاقت الأرض بكثرة إحيائها ، أو لأنتنت من كثرة أمواتها.

ومعنى كفالته تعالى لرزقها أنه سخره لها وهداها إلى طلبه وتحصيله كما قال : « رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وقد علم بنصوص القرآن وسنن

الله فى الخلق وأسباب الرزق أن مشيئته تعالى لاتكون إلا بمقتضى سننه فى ارتباط الأسباب بالمسببات مع الحكمة فى ذلك ، لاأنه يأتيها بمحض قدرته سواء طلبته أم لا.

(و يعلم مستقرها ومستودعها) أى و يعلم حيث تستقر وتقيم ، وحيث كانت مودعة إلى حين ، و يرزقها فى كلتا الحالين .

(كلّ فى كتاب مبين) أى كل الدواب وأرزاقها ومستقرها ومستودعها ثابت مرقوم فى كتاب مبين أى فى لوح محفوظ كتب الله فيه مقادير الخلق كلها .

(وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) أى فى ستة أيام من أيام الله فى الخلق والتكوين وماشاء من الأطوار ، لامن أيامنا فى هذه الدار التى وجدت بهذا الخلق لاقبله ، فلا يصح أن تقدر أيام الله بأيامنا ، و يؤيد هذا قوله تعالى : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » وقوله: « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

وقد أثبت علماء الفلك أن أيام غير الأرض من الكواكب التابعة لنظام شمسنا تختلف عن أيام هذه الأرض فى طولها بحسب أجرامها وأبعادها وسرعتها فى دورانها ، وأن أيام التكوين بخلقه تعالى من الدخان الذى يعبرون عنه بالسديم شموسا مضيئة تتبعها كواكب منيرة ـ يقدر اليوم منها بألوف الألوف من سنينا هذه .

(وكان عرشه على الماء) أى وكان سرير ملكه فى أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء ، وعرش الرحمن من عالم الغيب الذى لاندركه بحواسنا ، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا ، فلا نعلم كنه استوائه عليه ولاصدور تدبيره لأمر هذا الملك العظيم ، ومن ثم روى عن أمّ سلمة رضى الله عنها وعن مالك ور بيعة قولهم : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

ومن الآية نعلم أن الذى كان دون العرش من مادة الخلق قبل تكوين السموات والأرض هو الماء الذى جعله الله أصلا لخلق جميع الأحياء كما قال : « أَوَلَمْ يَرَ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ » أى إنه يجب عليهم أن يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لافتق فيها ولا انفصال ، وهى ماتسمى لدى علماء الفلك السديم، و بسميها القرآن الدخان ، ففتقناهما بفصل بعضهما من بعض فكان منها ماهو سماء ومنها ماهو أرض ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون بأن الرب الذى خلق كل هذا هو الذى يُعبد وحده ولا يُشرك به شيء ، وأنه قادر على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة ؟ .

والخلاصة — إن الماء أصل جميع الأحياء وهو الذى يتنزل إليه أمر التدبير والتكوين .

ثم علل خلقه بما ذكر ببعض حكمه الخاصة بالمكلفين المخاطبين بالقرآن فقال :

(ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أى ليجعل ذلك ابتلاء واختبارا لكم فيُظْهِر أَيُّكُمْ أحسن إتقانا لما يعمله لنفسه وللناس ، ذاك أنه تعالى سخر لنا مافى الأرض وجعلنا مستعدين لإبراز ماأودعه فيها من منافع وفوائد مادية ومعنو ية ، ومستعدين للإفساد والضرر ، ليجزى كل عامل بما يعمل ، و إنما يتم ذلك و يظهر فى الآخرة .

(و لئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) أى ولئن أخبرت هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم ، ليجزيهم فيما بلاهم به كما قال : « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ليجيبَنَّك الذين كذبوا بلقاء الله قائلين : ماهذا الذى جئتنا به من هذا القرآن لتسحرنا لطاعتك وتمنعنا عن لذات الدنيا — إلا سحر بين ظاهر تسحر به العقول وتسخِّر به الضمائر والقلوب .

و بعد أن ذكر مايقوله المنكرون للبعث ذكر مايقوله المنكرون لإنذار الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم عذاب الدنيا والآخرة بتكذيبهم له فقال :

(ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايحبسه ؟) أى ولئن أخرنا

عنهم عذابنا الذى توعّدهم به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حين من الزمن مقدر فى علمنا وهو مقتضى سنتنا فى خلقنا ، و بيناه فى كتابنا بقولنا « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » ليقولن استهزاء ، أى شىء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقا .

(ثم توعدهم بنزوله فقال ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم) أى ألا إن له يوما يأتيهم فيه حين تنتهى المدة المضروبة دونه ، ويؤمئذ لا يصرفه صارف ، ولا يحبسه حابس .

(وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وسيحيط بهم يومئذ من كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه ، فلا هو يصرف عنهم ، ولا ينجون منه.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

تفسير المفردات

الإذاقة هنا : الإعطاء القليل ، والنزع : السلب والحرمان ، واليئوس : شديد اليأس من عود تلك النعمة ، والكفور : كثير الكفران والجحود لما سلف عليه من النعم ، والنعماء والنعمة والنُّعْمى : الخير والمنفعة ، ويقابلها الضراء والضُّر ، وفرح : بطر مغتر بهذه النعمة ، فخور : متعاظم على الناس بما أوتى من النعم ، مشغول بذلك عن القيام بشكرها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ليبلو الإنسان أيشكر أم يكفر؟ـ نفّى على ذلك بذكر طبيعة الإنسان فى ذلك ، وهى أنه إذا أصابته نعماء ثم نزعت منه

قنط من رَوحْ الله وكفر بها ، وإذا أذاقه نعمة بعد بؤس بطر وفخر ـ هكذا شأن الإنسان ـ إلا من صبر وشكر وعمل صالحا .

الإيضاح

(ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور) أى ولئن أعطينا الإنسان نوعا من أنواع النعم كرخاء عيش و بسطة رزق وصحة وأمن وولد بارّ ، رحمة مبتدأة منا أذقناه لذاتها فكان شديد الاغتباط بها ، ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التى قدرها الله فى الخليقة كالمرض والموت والعسر ، إنه ليظل فى هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها .

والخلاصة — إنه يجمع بين اليأس بعودة ما نُزِع منه والكفر بما بقى له ، لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر .

(ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور) أى ولئن كشفنا عنه الضراء التى أصابته وحل محلها نعماء ، كشفاء من مرض ، وزيادة قوة ، وخروج من عسر إلى يسر ، ونجاة من خوف وذل ، إنه ليقولن : ذهب ما كان يسوءنى من المصايب والضراء ولن يعود ، وماهى إلا سحابة صيف قد تقشّعت ، وعلىّ أن أنساها وأتمتع بتلك اللذات ، و إنه حينئذ لشديد الفرح بما يهيجه البطر بتلك النعمة ، و إنه ليغالى فى الفخر والتعالى على الناس والاحتقار لمن دونه فيها .

والخلاصة — أنا إذا منحنا هذا الإنسان اليئوس الكفور نعماء أذقناه لذتها بعد ضراء مسته باقترافه أسبابها لم يقابلها بشكر الله عليها ، بل يبطر ويفخر على الناس ولا يقوم بما يجب عليه من مواساة البائسين الفقراء وعمل الخير لبنى الإنسان كفاء ما هو متمتع به من تلك النعم .

ثم استثنى سبحانه من جنس الإنسان فيما ذكر من حاليه السالفتين قبل الصابرين الذين يعملون الصالحات فقال :

(إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) أى إلا الذين صبروا على ماأصابهم من الضراء إيمانا بالله واحتسابا للأجر عنده ، وعملوا الصالحات حينما يكشفها و يبدّل النعماء بها و يشكره باستعمالها فيما يرضيه من عمل البر والخير لعباده ، أولئك لهم مغفرةٌ من ربهم تمحو ماعَلِق بأنفسهم من ذنب أو تقصير ، وأجرٌ كبير فى الآخرة على ما وفّقوا لعمله من بر وخير كثير .

والخلاصة — إن الإنسان و إن كان مؤمنا حق الإيمان لايسلم من ضيق صدر حين حلول الضراء والمصايب ، وذلك مما ينافى كمال الرضا ، كما لايسلم حين النعماء من شىء من الزَّهْوِ والتقصير فى الشكر ، فيغفر له كل منهما بصبره وشكره و إنابته إلى ربه .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « وَالعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

ووصف الأجر بالكبير — لما حواه من نعيم سرمدى وأمن من العذاب ورضا من الله عز وجل ونظر إلى وجهه الكريم «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ» .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

تفسير المفردات

لعل هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النهى ، وضيق الصدر : يراد به الغم والحزن ، والكنز : مايُدَّخر من المال فى الأرض ، والوكيل : الرقيب الحفيظ للأمور ،

الموكّل بحراستها ، والاستجابة للداعى : إجابته ، والإسلام : الإذعان والخضوع والانقياد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فى بدء السورة قولهم فى القرآن : إنه سحر مبين ، وأنهم يستغشون ثيابهم كى لايسمعوه ـ قفّى على ذلك بذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن و بيان أن همه وحزنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من كلامهم كل مبلغ ، ثم أعقبه بتحدّيه لهم بالقرآن كى يأتوا بعشر سور مثله ، حتى إذا ماعجزوا علم أنه وحى من عند الله .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت حين قال رؤساء مكة : يامحمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوّتك فقال لاأقدر على ذلك .

الايضاح

(فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك) أى أفتارك أنت أيها الرسول بعض مايوحى إليك ، مما يشقّ سماعه على المشركين من الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك والإنذار والوعيد لهم ، والنعى على معبوداتهم وتسفيه أحلامهم ، وضائق به صدرك أن تبلّغهم إياه كما أنزل .

ذاك أنهم كانوا يتهاونون به ، فيضيق صدره أن يلقى إليهم مالايقبلون ومايضحكون منه ، فاستحثه سبحانه على أداء الرسالة وعدم المبالاة باستهزائهم ، وطرح مقالاتهم الساخرة وراءه ظهريا .

وخلاصة ذلك ــ تحمّلْ أخف الضررين وهو تحمل سفاهتهم ، على ترك بعض الوحى والوقوع فى الخيانة فيه .

(أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) أى كراهة أن يقولوا : هلا أعطاه ربه كنزا من عنده يغنيه ويمتاز به عن غيره ، أو جاء معه ملك يؤيده فى دعوته كما حكى الله عنهم فى سورة الفرقان « وَقَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » .

وجملة المعنى — إن عنادهم وجحودهم وإعراضهم عن الإيمان وشدة اهتمامك بأمرهم مما من شأنه أن يقتضى ضيق الصدر بحسب الطباع البشرية أو أن يخطر على البال ترك بعض الوحى ، ولولا عصمتنا إياك وتثبيتنا لك لاجترحت ذلك واستسلمت لما تمثله جرت العادة ، ولكن الله حفظك حتى تؤدى رسالته وترحم العالمين بنور نبوتك كما قال : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا » .

وقد جاء بمعنى الآيه قوله تعالى : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقوله : « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » وقوله : « الٓمٓصٓ . كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » .

(إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) أى ليس عليك إلا إنذارهم بما أوحى إليك غير مبال بما يصدر منهم ويطلق ألسنتهم ، والله هو الرقيب على عباده وليس عليك من أعمالهم شىء .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » وقوله : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

و بعد أن ذكر ضيق صدره لتكذيب المشركين له ، قفى على ذلك بذكر ماقالوه فى القرآن فقال :

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أى بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة إن محمدا قد افترى هذا القرآن ؟ فقل لهم إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم لاتدّعون أنها من عند الله ، فإنكم أهل اللّسن والبيان والمران على المفاخرة بالفصاحة والبلاغة وفنون الشعر والخطابة ، ولم يسبق لى مع العمر الطويل الذى عشته بينكم أن أزاول شيئا من ذلك ، فإن كان من كلام البشر فأنتم على مثله أقدر ، و إنكم لتعلمون أنى لم أكذب على بشر قط ، فكيف أفترى على الله ، و إن زعمتم أن لى من يعينى على تأليفه ووصفه ، فادعوا من استطعتم ممن تعبدون غير الله ، ومن جميع خلقه ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر ، ولتكن مثله مفتريات تشتمل على مثل مافيه من تشريع دينى ومدنى وحكم ومواعظ ، وآداب وأنباء غيبية إخبارا عن ماض ، وأنباء غيبية إخبارا عن مستقبل ، بمثل هذا النظام البديع والأسلوب البالغ حد الإعجاز ، والبلاغة الساحرة للألباب ، والسلطان الحاكم على الأنفس والأرواح ـ إن كنتم صادقين فى دعواكم .

والخلاصة ـ إن مشركى مكة المعاندين لم يجدوا شبهة فى القرآن بعد شبهة السحر التى لم تجد آذانا صاغية عند العرب ، لأنهم أرباب الفصاحة واللسن فعرفوا فضله على سائر الكلام ـ إلا زعمهم أن محمدا قد افتراه جملة وليس بوحى من عند الله ، فتحداهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم والأسلوب ، محتوية على التشريع القيّم من دينى ومدنى وسياسى ، وحكم ومواعظ وآداب ، وكلّفهم دعوة من استطاعوا من دون الله ليظاهروهم ويعاونوهم على ذلك ، فعجزوا ولم يجدوا من فصحائهم من يستجيب لهم ، فقامت الحجة عليهم وعلى غيرهم إلى يوم الدين ، وهذا معنى قوله :

(فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) أى فإن لم يستجب لكم من

تدعونهم من دون الله ليعاونوكم على الإتيان بالعشر السور المماثلة للقرآن من فحول الكتاب ومصاقع الخطباء وعلماء أهل الكتاب العارفين أخبار الأنبياء ، فاعلموا أنما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمقتضى علم الله وإرادته أن يبلغه لعباده على لسان رسوله ولا يقدر عليه محمد ولا غيره ممن تدّعونه زورا أنهم أعانوه ، لأنه من علم الغيب الذى لا يعلمه إلا من أعلمه الله به .

(وأن لا إله إلا هو) أى واعلموا أنه لا إله يعبد بحق إلا هو ، إذ من خصائص الإله أن يعلم ما لا يعلمه غيره ، وأن يَعْجَز من عداه عن مثل مايقدر عليه .

(فهل أنتم مسلمون) أى فهل أنتم بعد أن قامت عليكم الحجة داخلون فى الإسلام الذى أدعوكم إليه بهذا القرآن ، مؤمنون بما فيه من عقائد ووعد ووعيد وأحكام وحِكم وآداب .

والخلاصة — إنه لم يبق لكم بعد أن دُحِضَتْ شبهتكم وانقطعت معاذيركم إلا جحود العناد و إعراض الاستكبار ، والعاقل المنصف لا يرضى لنفسه بمثل هذا دعاء المشركين .

افتراء النبى صلى الله عليه وسلم للقرآن

افتراء القرآن يشمل ناحيتين :

(١) افتراء فى جملته بإسناده إلى الله ادعاء أنه من كلامه أوحاه إليه .

(٢) افتراء أخبار الغيب التى يدّعى أنها من عند الله ولا يعلمها إلا هو وبها استدل على نبوته ، وقد حكى الله عنهم ادعاء الأمرين فى سورة الفرقان بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

وأساطير الأولين : هى قصصهم وأكاذيبهم التى سطروها ، وكانت العرب تسلّى نفسها بمن جهلها بالأديان والتواريخ بزعمهم أنها أساطير الأولين .

وأنباء الغيب ضربان :

(ا) أنباء الغيب الماضية ، وتشمل قصص الرسل مع أقوامهم ، وأخبار التكوين كخلق السموات والأرض وما بينهما كخلق الإنسان والجانّ .

(ب) أنباء الغيب الآتية ، وتشمل وعد الله بنصره لرسله والمؤمنين وجعل العاقبة لهم واستخلافهم فى الأرض وخذلان أعدائهم الكافرين ، والقيامة والبعث والحساب والجزاء على العقائد والأعمال ، وقد كانوا ينكرون ذلك ويستبعدونه .

ما حوته قصص القرآن

إن فى قصص القرآن لأشعةً من ضياء العلم والهدى جاءت على لسان كهل أمىّ لم يكن منشئا ولا راوية ولا حافظا ، ويمكن أن نجمل أغراضها فيما يلى :

(١) بيان أصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله وتوحيده وعلمه وحكمته وعدله ورحمته والإيمان بالبعث والجزاء .

(٢) بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحى الله لعباده فحسب ، ولا يملكون وراء ذلك نفعا ولا ضرا :

(٣) بيان سنن الله فى استعداد الإنسان النفسى والعقلى لكل من الإيمان والكفر والخير والشر .

(٤) بيان سنن الله فى الاجتماع وطباع البشر ومافى خلقه للعالم من الحكمة .

(٥) آيات الله وحججه على خلقه فى تأييد رسله .

(٦) نصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم كقوم نوح فى غوايتهم وغرورهم ، وقوم فرعون وملئه فى ثروتهم وعتوهم ، وقوم عاد فى قوتهم وبطشهم ، وقوم لوط فى فحشهم .

فإن أمكن أن يكون كل هذا حديثا مفترى ، فان مفتريه يكون أكمل منهم جميعا علما وعملا وهداية وإصلاحا ، فما أجدرهم أن يتبعوه ، وما أحقهم أن يهتدوا بهديه ،

ولن يكشف حقيقة أمره إلا من يستطيع أن يأتى بحديث مثله ولو مفترى فى صورته وموضوعه ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين .

ومن المعلوم أن الاحتذاء والاتباع ، أهون من الابتداء والابتداع .

ولكن افتراء الأمى لهذه العلوم الإلهية والنفسية والتشريعية محال ، فقد عجز عن مثلها حكماء العلماء ـ أفهكذا يكون الافتراء ، والحديث المفترى الذى يُنْهَى عنه العقلاء وفى التحدى بهذه السور العشر توسيع على المنكرين إن حدثتهم أنفسهم أن يتصدّوا لمعارضته ، لكنهم لم يستطيعوا فقامت عليهم وعلى غيرهم الحجة إلى يوم القيامة .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

تفسير المفردات

نوف إليهم : أى نوصّل إليهم ، ولا يبخسون : لا ينقصون ، وحبط : أى فسد و بطل ولم ينتفعوا به .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الحجة على حقية دعوة الإسلام ، وعلى أن القرآن من عند الله وليس بالمفترى من عند محمد صلى الله عليه وسلم كما يدعيه المشركون ـ قفّى على ذلك ببيان أن الباعث لهم على المعارضة والتكذيب ليس إلا شهواتهم وحظوظهم الدنيوية والإسلام يدعو إلى إيثار الآخرة على الأولى .

الايضاح

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوّف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) أى من كان حظهم من الدنيا التمتع بلذاتها من طعام وشراب ، وزينتها من اللباس والأثاث والرياش والأموال والأولاد دون استعداد للحياة الآخرة بعمل البر والإحسان وتزكية النفس بعمل الطاعات بباعث الإيمان ـ نؤد إليهم ثمرات أعمالهم وافية تامة بحسب سنتنا فى الأسباب ولا يُنْقَصُون شيئا من نِتاج كسبهم لأجل كفرهم ، إذ مدار الأرزاق فيها على الأعمال لا على النيات والمقاصد ، و إن كان لهداية الدين أثر فى ذلك كالاستقامة والصدق ، واجتناب الخيانة والزور والغش ونحو ذلك .

والخلاصة — إن جزاء الأعمال فى الدنيا منوط بأمرين : كسب الإنسان ، وقضاء الله وقدره به ، وأما جزاء الآخرة فهو بفعل الله تعالى بلا وساطة أحد . « وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) أى هؤلاء الذين لاهمّ لهم إلا الدنيا وزينتها ، ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، لأن الجزاء فيها على الأعمال كالجزاء فى الدنيا ، وهم لم يعملوا للآخرة شيئا ، فإن العمل لها يكون بتزكية النفس بالإيمان وعمل الفضائل ـ وبالتقوى باجتناب المعاصى والرذائل ، وما صنعوه فيها مما ظاهره البر والإحسان كالصدقة وصلة الرحم ونحو ذلك لم يكن تزكية لأنفسهم تقرّبهم إلى ربهم ، بل كان لأغراض نفسية من شهواتها كالرياء والسمعة والاعتزاز بذوى القرابة على الأعداء ولو بالباطل ، فلا أجر له فيها وقد انقطع أثره الدنيوى .

وقد جاء فى معنى الآية قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ

وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والخلاصة — أن الدين يبيح التمتع بالطيبات من المآكل والمشارب ، ويبيح الزينة فى غير سَرَف ولا خُيَلاء ، على شريطة ألا يجعلها المرء كل همه فى الحياة ، فيحتقر المواهب الإنسانية من عقلية وروحية وهى التى سما بها الإنسان على غيره من المخلوقات ، ألا ترى أن الثور يفضُله فى كثرة الأكل ، والبعير فى كثرة الشرب ، والعصفور فى كثرة السِّفاد ، والطاوس فى الزينة ولمعان اللباس .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)

تفسير المفردات

البينة : ما يتبين به الحق كالبرهان فى الأمور العقلية ، والنصوص فى الأمور النقلية ، والتجارب فى الأمور الحسية ، والشهادة فى القضاء ، ويتلوه : يتبعه ، والشاهد : هو القرآن ، والموعد : مكان الوعد وهى النار يَرِدها كما قال : « لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » والمرية : الشك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مآل من كان يريد الدنيا وزينتها ولا يهتمّ بالآخرة وأعمالها ـ قفى على ذلك بذكر من كان يريد الآخرة ويعمل لها ، وكان على بينة من ربه فى كل ما يعمل ومعه شاهد يدل على صدقه ، وهو القرآن ، ومآل من أنكر صحته وكفر به .

الإيضاح

(أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) أى أفمن كان على نور وبصيرة فى دينه ويؤيده نور غيبى يشهد بصحته وهو القرآن المشرق النور والهدى ، ويؤيده شاهد آخر جاء من قبله . وهو الكتاب الذى أنزل على موسى عليه السلام حال كونه إماما متّبعا فى الهدى والتشريع ، ورحمة لمن آمن وعمل به من بنى إسرائيل (وشهادة موسى لهذا النبى الكريم شهادة مقال بالبشارة بنبوته ، وشهادة حال وهى التشابه بين رسالتيهما) ـ أى أفمن كان على هذه الأوصاف كمن يريد الحياة الدنيا الفانية وزينتها الموقوتة ، ويظل محروما من الحياة العقلية والروحية التى توصل إلى سعادة الآخرة الباقية .

ونحو الآية قوله : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ »

وإجمال المعنى — أفمن كان كامل الفطرة والعقل ، وعرف حقيقة الوحى وهو القرآن وما فيه من نور وهداية ، وعرف تأييده بالوحى السابق الذى اهتدى به بنو إسرائيل ، فتظاهرت لديه الحجج الثلاث فى الهداية (كمال الفطرة ، ونور القرآن والوحى الذى أنزل على موسى) كمن حرم من ذلك وكان همه مقصورا على الحياة الفانية ولذاتها .

(أولئك يؤمنون به) أى أولئك الذين جمعوا بين البينة الوهبية ، والبينة الكسبية النقلية ، يؤمنون بهذا القرآن إيمان يقين وإذعان ، على علم بما فيه من الهدى والفرقان ، فيجزمون بأنه ليس بالمفترَى من دون الله ولم يكن من شأنه أن يكون كذلك .

(ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) أى ومن يكفر بهذا القرآن فيجحد أنه من عند الله ممن تحزبوا من أهل مكة وزعماء قريش للصدّ عنه . قال مقاتل هم بنو أمية و بنو المغيرة بن عبد الله المخزومى وآل طلحة بن عبيد الله ، والذين سيتحزبون لمثل ذلك من أهل الكتاب - فإنه يصير إلى جهنم من جرّاء تكذيبه لوعيده الذى جاء فى نحو قوله « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » .

(فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك) أى فلا تكن أيها المكلف فى شك من أمر هذا القرآن إنه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه آتيا من ربك وخالقك الذى يربيك بما تكمل به فطرتك ، و يوصلك إلى سعادتك فى دنياك وآخرتك .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يؤمنون هذا الإيمان الكامل ، أما المشركون منهم فلاستكبار زعمائهم ورؤسائهم ، وتقليد مرءوسيهم وعامتهم لهم ، وأما أهل الكتاب فلتحريفهم دينَ أنبيائهم وابتداعهم فيه .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ (٢٤) .

تفسير المفردات

الأشهاد : واحدهم شاهد ، واللعنة : الطرد من الرحمة ، والصدّ عن سبيل الله : الصرف عنه ، والعوج : الالتواء ، ومعجزين فى الأرض ، أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه ، وضل : أى غاب ، ولا جرم : أى حقا ، وأخبتوا : أى خشعوا وخضعوا وأصله من الخبت ، وهو الأرض المطمئنة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سبق أن الناس فريقان : فريق يريد الدنيا وزينتها وفريق على بينة من ربه ، قفّى على ذلك ببيان حال كل من الفريقين فى الدنيا وما يكون عليه فى الآخرة .

الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن افترى على الله كذبا فى أقواله أو أفعاله ، أو أحكامه أو صفاته ، أو فى اتخاذ الشفعاء والأولياء له بدون إذنه أو فى زعم أنه اتخذ له ولدا من الملائكة كالعرب الذين قالوا الملائكة بنات الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، أو فى تكذيب ما جاء به رسله من دينه لصدّ الناس عن سلوك سبيله .

(أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) أى ويوم القيامة تعرض أعمال هؤلاء وأقوالهم على ربهم لمحاسبتهم ، ويقول الذين يقومون للشهادة عليهم من الملائكة والأنبياء وصالحى المؤمنين : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم بالافتراء عليه ، ويفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعنة الدالة على خروجهم من محيط الرحمة .

وقد جاء فى معنى الآية قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » وفى حديث ابن عمر فى الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يُعْطَى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول: الأشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) » .

(الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) أى إن الظالمين هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن سبيل الله (وهى دينه القيم وصراطه المستقيم) ويصفونها بالعوج والالتواء لينفّروا الناس منها ، والحال أنهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون ببعث ولا جزاء .

(أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب) أى إن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لم يكونوا بالذين يُعْجِزون ربهم بهَرَبهم منه فى الأرض إذا أراد عقابهم ، بل هم فى قبضته وملكه ، لا يمتنعون منه إذا أرادهم ولا يفوتونه هربا إذا طلبهم ، ولم يكن لهم أنصار ينصرونهم من دونه ويحولون بينهم وبينه إذا هو عذّبهم ، ويضاعف لهم العذاب من أجل ضلالهم وإضلالهم .

ثم بين علة هذه المضاعفة بقوله :

(ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) أى ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم إلى القرآن إصغاء لدعوة الحق ، لاستحواذ الباطل على أنفسهم ورَيْن الكفر والظلم على قلوبهم ، كما حكى الله عنهم بقوله : « وَقالَ الَّذِينَ كفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » وما كانوا يبصرون مايدل على صدقه فى الأنفس وفى الآفاق .

وإجمال المعنى — إنهم لشدة انهماكهم فى الكفر واتباع الهوى والشهوات صاروا يكرهون الحق والهدى ، فيثقل عليهم سماع مايبينه من الآيات السمعية ومايثبته من الآيات البصرية ، فهم قد ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم فلا يسمعون الحق سماع منتفع ولا يبصرون حجج الله إبصار مهتدٍ .

(أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى أولئك الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ، بافترائهم عليه واشتراء الضلالة بالهدى ، وبطل كذبهم بادعاء أن له شركاء وشفعاء يقربونهم إليه زلفى ، ثم سُلِك بما كانوا يدعونه من دون الله غير مسلكهم ؛ إذ سُلك بهم إلى جهنم وصارت آلهتهم عدما ؛ لأنها كانت فى الدنيا أحجارا أو خُشُبا أو نحاسا ، وذلك هو ضلالهم وبُعدهم عنهم .

(لاجرم أنهم فى الآخرة هم الآخسرون) أى حقا إنهم فى الآخرة أشد الناس خسرانا ، إذ هم قد اعتاضوا عن نعيم الجنان ، بحميم آنٍ ، وعن شرب الرحيق المختوم ، بسموم وحميم ، وظلّ من يحموم ، وعن الحور العين ، بطعام من غسلين ، وعن قرب الرحمن ، بعقوبة الملِك الديان .

وبعد أن بين حال الكافرين وأعمالهم ومآلهم ، بيّن حال المؤمنين وعاقبة أمرهم فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا فى الدنيا الأعمال الصالحة ، فأتَوْا

بالطاعات وتركوا المنكرات ، وخشعت نفوسهم واطمأنت إلى ربهم ـ أولئك هم قُطَّان الجنة الذين لايخرجون منها ولايموتون ، بل هم ماكثون فيها أبدا .

(مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) أى مثل فريق الكافرين والمؤمنين وصفتهما الحسية التى تطابق حالهما كمثل الأعمى الفاقد لحاسة البصر فى خلقته ، والأصم الفاقد لحاسة السمع الذى حُرِم وسائل العلم والمعرفة الإنسانية والحيوانية ، ومن هو كامل حاستى السمع والبصر ، فهو يستمد العلم من آيات الله فى خلقه بما يسمع من القرآن وبما يرى فى الأكوان ، وهما وسيلتا العلم والهدى لعقل الإنسان .

(هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ؟) أى هل يستوى الفريقان صفة وحالا ومآلا ؟ كلا ، إنهما لايستويان ، أتغفلون عن ذلك المثل الجلى الواضح أفلا تتذكرون مابينهما من التباين والاختلاف فتعتبروا به ؟ .

وإجمال المعنى ـــ إنه شبه الكافرين بالعُمى الذين لايستعملون أبصارهم فيما يفضلون به الحيوان العُجْم من فهم آيات الله التى تزيدهم علما وهدى ، وبالصمّ الذين لايسمعون داعى الله إلى الرشاد والهدى فيجيبونه ويهتدون به ، وشبه المؤمنين الذين انتفعوا بأسماعهم وأبصارهم واهتدَوْا إلى الجنة وتركوا ما كانوا خابطين فيه من كفر وضلال ، بحال من هو سميع بصير فيهتدى بسمعه إلى مايبعده من مواضع الهلاك ، ويهتدى ببصره بواسطة النور حين السير فى الظلام .

قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ

هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) .

تفسير المفردات

الملأ : الأشراف والزعماء وأراذل : واحدهم أرذل ، وهو الخسيس الدنىء ، وبادى الرأى : أى ظاهره قبل التأمل فى باطنه ، وفضل : أى زيادة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر بعثة النبى الكريم ، وأثبت بالبرهان أنه رسول من رب العالمين ، وأن القرآن وحى من الرحمن الرحيم ، قفّى على ذلك بقصص الأنبياء قبله ليبين لقومه أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بِدْعا من الرسل وأنه إنما بعث بمثل مابعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والجزاء ، فحاله معهم كحال من قبله من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم جملة وتفصيلا كما قال : « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً » .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين) أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه قائلا لهم إنى لكم نذير من الله أنذركم بأسه على كفركم به ، فآمنوا به وأطيعوا أمره .

ثم فسر هذا الإنذار بقوله :

(ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) أى بألا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئا ، وكانوا أول من أشرك بالله واتخذوا الأنداد ، وكان هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض .

ثم علل هذا بقوله :

إنى أخاف عليكم الخ ، أى إن لم تخصوه بالعبادة وتفردوه بالتوحيد وتخلعوا مادونه من الأنداد والأوثان ـ أخفْ عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه وعذابه ، لمن عُذِّب فيه .

وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى فى رد دعوته .

(١) (فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا) أى إن الأشراف والزعماء بادروا إلى الجواب بقولهم : ماأنت إلا بشر مثلنا فى الجنس لامزية لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

(٢) (ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) أى وإنا لم نر متبعيك إلا الأخساء كالزرّاع والصناع ومن فى حكمهم فى المكانة الاجتماعية ، بادى الرأى قبل التأمل فى عواقبه ، والنظر فى مستنده ، وترجيح العقل له ، وهذا مما يرجح رد الدعوة والتولى عنها .

(٣) (ومانرى لكم علينا من فضل) أى ومانرى لك ولمن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كثرة أو علم أو أصالة رأى يحملنا على اتباعكم ويجعلنا ننزل عن جاهنا ومالنا ونكون نحن وأنتم سواء .

(٤) (بل نظنكم كاذبين) أى بل إنا نرجح الحكم عليك وعليهم بالكذب ، فأنت كاذب فى دعوى النبوة ، وهم كاذبون فى تصديقك ، وهذه الشبهة الأخيرة طعن على نوح عليه السلام أشركوا فيها أتباعه ولم يجابهوه بها وحده ؛ كما أنهم جعلوها ظنا ولم يجزموا بها ، لأن ذلك كاف فى رد دعوته ، وعدم الدخول فى دينه .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ، وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) .

تفسير المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، والبينة . مايتبين به الحق ، وعميت : أخفيت ، وطرده : أبعد ونحاه ، وتجهلون : أى تسفهون عليهم ، وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم ، وتذكرون أصله تتذكرون ، وزرى على فلان زراية : عابه واستهزأ به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالتهم وطعنهم فى نوح عليه السلام بتلك الشبه السالفة ، قفى على ذلك بدحض نوح لها ، ورد شبهات أخرى قد تكون صدرت منهم ولم يحكها ، لعلمها من الرد عليها ، وربما لم يقولوها وإن كان كلامهم يستلزمها ، وهذا من خواص أسلوب الكتاب الكريم ، وسر من أسرار بلاغته .

الإيضاح

(قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم) أى قال ياقومى : أخبرونى ماذا ترون وماذا تقولون ، إن كنت على حجة فيما جئتكم به من ربى يتبين لى بها أنه الحق من عنده ، لا من عندى ومن كسبى البشرى الذى تشاركوننى فيه ، وآتانى رحمة من عنده وهى النبوة وتعاليم الوحى التى هى سبب رحمة

خاصة لمن يهتدى بها ، فحجبها عنكم جهلكم وغروركم بالمال والجاه فلم تتبينوا منها ماتدل عليه من التفرقة بينى و بينكم ، فمنعتم فضل الله عنى بحرمانى من النبوة .

(أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) أى أنكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين لها ، كلا ، إنا لا نفعل ذلك ، بل نَكِل أمركم إلى الله حتى يقضى فى أمركم مايرى و يشاء ، وما علىّ إلا البلاغ .

وهذا أول نصّ فى دين الله على أنه لاينبغى أن يكون الإيمان بالإكراه .

وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، وردّ لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، و إبطال لشبهتهم فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لاتقتضى استواء أفراد الجنس فى الكمالات والفضائل ؟ فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى والأخلاق والأعمال ، حتى إن الواحد منهم ليأتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجز عن مثلها الألوف من الناس فى أجيال كثيرة .

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عرا

فما بالك بمن يختصهم الله من عباده بما شاء مما لا كسب لهم فيه كالأنبياء والرسل الكرام .

(ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) أى لاأسألكم على نصيحتى لكم ودعوتكم إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له إلا خيركم ومصلحتكم ولا أريد بذلك مالا فأكون متهما فيه عندكم لمكانة حبّ المال من أنفسكم واعتزازكم به علىّ وعلى الفقراء من أتباعى ، فما أجري على ذلك إلا على الله الذى أرسلنى ، فهو الذى يجازينى و يثيبنى عليه .

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده ، فجاءت على لسان هود وصالح وشعيب ومحمد ، صلوات الله عليهم أجمعين كما ترى ذلك فى سورة الشعراء محكيا عنهم .

(وما أنا بطارد الذين آمنوا) أى ليس من شأنى ولا بالذى يكون منى أن أبعد من يؤمن بى ، وأنحيّه عنى احتقارا له على أىّ حال كانت صفته .

وفى هذا إيماء إلى الجواب عن قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) وقد روى أنهم قالوا له يانوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء ، فإنا لن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

ثم علل الامتناع من طردهم بقوله :

(إنهم ملاقو ربهم) أى إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم ـ صائرون إلى ربهم وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسبهم وشرفهم .

(ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى تجهلون مايمتاز به البشر بعضهم عن بعض من اتباع الحق والتحلى بالفضائل وعمل البر والخير ، وتظنون أن الميزة إنما تكون بالمال والجاه .

وقد جاء هذا المعنى فى قصته من سورة الشعراء : « قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

(ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم) أى ويا قوم لا أجد أحدا يمنع عنى ما أستحقه من عقاب الله إن طردتهم بعد إيمانهم واتباعهم إياى فيما بلغتهم ـ فإن ذلك ظلم عظيم يستحق شديد العقاب مهما تكن صفة من اجترحه كما قال فى سورة الأنعام : « فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

(أفلا تذكرون) أى أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطأ لائح فتنتهوا عنه ؟ ، فإن لهم ربّا ينصرهم وينتقم لهم .

(ولا أقول لكم عندى خزائن الله) أى ولا أقول لكم بادعائى للنبوة والرسالة إن عندى خزائن رزق الله : (أنواع رزقه التى يحتاج إليها عباده للإنفاق منها)

أتصرّف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنفق على نفسى وعلى من تبعنى بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيرى فى الكسب سواء ، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة ولا من خصائص النبى ، ولو كان كذلك لاتبع الناس الرسل لأجلها . بل الغاية من بعث الرسل تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته ، وتأهيلها لمثوبته فى دار كرامته ، ورضاه عنها يوم لا ينفع مال ولا بنون .

(ولا أعلم الغيب) فلا أمتاز عن سائر البشر بعلم مالا يصل إليه علمهم الكسبى من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم فى معايشهم وكسبهم ، فأخبر بها أتباعى ليفضّلوا عليكم ، ومن ثم أمر الله نبيه أن يقول لقومه : «قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ » .

(ولا أقول إنى ملَك) من الملائكة أرسلت إليكم فأكون كاذبا فيما أدعى ، بل أنا بشر مثلكم أمِرْتُ بدعائكم إلى الله وقد أبلغتكم ماأرسلت به إليكم .

وفى هذا دَحْض لشبهتهم ، إذ زعموا أن الرسول من الله إلى البشر يجب أن يفضلهم ويمتاز عنهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يكون ملَكا يعلم مالا يعلمه البشر ، ويقدر على مالا يقدر عليه البشر .

(ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا) أى ولا أقول للذين اتبعونى وآمنوا بالله وحده ، وأنتم تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار فتزدريهم أعينكم لفقرهم ورثاثة حالهم : لن يؤتيهم الله خيرا وهو ماوُعدوه على الأيمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة .

(الله أعلم بما فى أنفسهم) أى الله أعلم بما فى صدورهم وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة ، ومن اتباع رسوله بإخلاص وصدق سريرة ، لا كما زعمتم من اتباعهم إياى بادى الرأى بلا بصيرة ولا علم .

(إنى إذا لمن الظالمين) أى إنى إذا قضيت على سرائرهم بخلاف ماأبدته لى ألسنتهم على غير علم منى بما فى نفوسهم أكون ظالما لهم بهضم حقوقهم .

قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ، إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

تفسير المفردات

أصل الجدال . هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصُّلْبة ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، والنصح : تحرّى الخير والصلاح للمنصوح له ، والإخلاص فيه قولا وعملا ، والإغواء : الإيقاع فى الغى ، وهو الفساد الحسى والمعنوى ، والإجرام : الفعل القبيح الضارّ الذى يستحق فاعله العقاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه شبهاتهم فى رفض نبوة نوح عليه السلام وردّ نوح عليهم بما فيه مَقْنَع لهم لو كانوا يعقلون ، ذكر هنا مقالتهم التى تدل على العجز والإفحام ، وأن الحيل قد ضاقت عليهم فلم يجدوا للرد سبيلا ، وفى ذلك إيماء إلى أن الجدال فى تقرير أدلة التوحيد والنبوة والمعاد وفى إزالة الشبهات عنها هى وظيفة الأنبياء ، والتقليد والجهل والإصرار على الباطل والإنكار والجحود هو دَيْدَن الكفار المعاندين .

الإيضاح

(قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)
أى قال قومه له : قد حاججتنا فأكثرت جدالنا واستقصيت فيه فلم تدَعْ حجة إلا ذكرتها حتى مللْنا وسئمنا ولم يبق لدينا شىء نقوله كما قال فى سورة نوح حكاية عنه: « قالَ رَبِّى إنى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَارًا » أى فأتنا بما تعدنا من عذاب الله الدنيوى الذى تخافه علينا وهو الذى أراده بقوله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) إن كنت صادقا فى دعواك أن الله يعاقبنا على عصيانه فى الدنيا قبل عقاب الآخرة .

(قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) أى قال لهم نوح حين استعجلوا العذاب : ياقوم إن هذا العذاب بيد الله لا أملكه وهو الذى يأتيكم به إن تعلقت مشيئته فى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، ولستم بفائتيه هربا منه إن أخره لحكمة يعلمها ، وهو واقع لامحالة متى شاء ، لأنكم فى ملكه وسلطانه ، وقدرته نافذة عليكم .

(ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) أى إن نصحى لكم لاينفعكم بمجرد إرادتى له فيما أدعوكم إليه ، بل يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى له ، وقد مضت سنته كما دلت عليه التجارب أن النصح إنما يقبله المستعد للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغى والفساد ، باجتراحه أسبابه من غرور بغنى وجاه، أو باتباع هوى وحب شهوات ، تمنع من طاعة الله تعالى .

والخلاصة — إن معنى إرادة الله إغواءهم اقتضاء سننه فيهم أن يكونوا من الغاوين لاخلقه للغواية فيهم ابتداء من غير عمل منهم ولا كسب لأسبابها ، فإن الحوادث مرتبطة بأسبابها والنتائج متوقفة على مقدماتها .

(هو ربكم وإليه ترجعون) أى هو مالك أموركم ومدبرها بحسب سننه المطردة

فى الدنيا ، ولكل شىء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، وإليه ترجعون فى الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير وشر ، ولا تظلمون نقيرا .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) .

المعنى الجملى

قال مقاتل وغيره : هذه الآية معترضة فى قصة نوح حكاية لقول مشركى مكة فى تكذيب هذه القصص . وللجمل والآيات المعترضة فى القرآن حكم وفوائد ، منها تنبيه الأذهان ومنع السآمة وتجديد النشاط بالانتقال من غرض إلى آخر والتشويق إلى سماع بقية الكلام ، ومن المتوقع هنا أن يخطر فى بال المشركين حين سماع ما تقدم من هذه القصة أنها مفتراة ، لاستغرابهم هذا السبك فى الجدال ، والقوة فى الاحتجاج فكان إيراد هذه الآية تجديدا للرد عليهم وتجديدا لنشاطهم .

الإيضاح

(أم يقولون افتراه) أى بل أيقول مشركو مكة : إن محمدا افترى خبر قوم نوح . فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

(قل إن افتريته فعلىّ إجرامى) أى إن كنت افتريته على الله كما تزعمون فما عليكم فى ذلك من بأس ، إنما إثم ذلك وعقابه علىّ ، ومن كان يؤمن أن هذا إجرام يعاقب عليه فاعله ، فما الذى يحمله على اقترافه ؟ .

(وأنا برىء مما تجرمون) أى كما أنى برىء من آثامكم وذنوبكم ، فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله كما قال : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) .

تفسير المفردات

ابتأس : اشتد بؤسه وحزنه ، والفلك : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع ، والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ، وسخر منه : استهزأ به ، ويخزيه : يذله ويفضحه : ومقيم : أى دائم :

المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه أن نوحا قد أكثر فى حجاجهم وجدالهم ، وأنه كلما ازداد فى ذلك زادوا عتوّا وطغيانا حتى تعجلوا منه العذاب وقالوا له : ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ـ قفّى على ذلك بذكر ما أيأسه من إيمانهم وأعلمه بأن ذلك كالمحال الذى لايكون ؛ فالجدال والحجاج معهم عبث ضائع ، فلن يؤمن منهم إلا من قد حصل منه إيمان من قبل . فإياك أن تغتمّ على ما كان منهم من تكذيب فى تلك الحقبة الطويلة ، فقد حان حينهم وأزف وقت الانتقام منهم .

الايضاح

(وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى وأوحى الله إلى نوح بعد أن استعجل قومه العذاب ، ودعا عليهم دعوته

التى حكاها الله عنه « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » : أنه لن يؤمن أحد منهم فيتّبعك على ماتدعوه إليه إلا من قد آمن من قبل فيظل على إيمانه فلا يشتدنّ عليك البؤس والحزن بعد اليوم ، بما كانوا يفعلون فى السنين الطوال من العناد والإيذاء والتكذيب لك ولمن آمن معك ، فأرِحْ نفسك بعد الآن من جدالهم ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام ، وحان حين العذاب .

(واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) أى واصنع الفلك الذى سننجيك ومن آمن معك فيه وأنت محروس ومراقب برعايتنا ، أى إننا حافظوك فى كل آن ، فلا يمنعك من حفظنا مانع ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه ، فلا يعرضَنَّ لك خطأ فى صنعته ولا فى وصفه .

ونحو الآية قوله لموسى « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » وقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » .

(ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى ولا تراجعنى فى شىء من أمرهم من دفع العذاب عنهم وطلب الرحمة لهم ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب وقضى عليهم بالإغراق .

والخلاصة — لا تأخذنك بهم رأفة ولا شفقة .

(ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أى وشرع يصنع الفلك وكلما مر عليه جماعة من كبراء قومه استهزءوا به وضحكوا منه ، وتنادروا عليه ظنا منهم أنه أصيب بالهَوَس والجنون .

روى أنهم قالوا له : أتحولت نجارا بعد أن كنت نبيًّا ، وليس ذلك بالغريب منهم فإنه مامن أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سخروا منه قبل أن يكتب له النجاح فيه .

(قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) أى قال نوح مجيبا لهم عن سخريتهم ، إن تسخروا منا اليوم وتستجهلونا لرؤيتكم مالاتتصورون له فائدة ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون جزاء وفاقا ، نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدا لما سيحلّ بكم .

(فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) أى فإن كنتم لاتعلمون اليوم فائدة مانعمل وما له من عاقبة محمودة فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه ويجلب له العار والخزى فى الدنيا وهو عذاب الغرق ، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة بعد ذلك ، وكل مافى الدنيا فهو هيّن لين بالنسبة إلى مايكون فى الآخرة لانقضائه وزواله ، وبقاء ذاك ودوامه .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَابُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) .

تفسير المفردات

الفور والفوران : الارتفاع القوى ، يقال فى الماء إذا نبع وجرى ، وإذا غلا

وارتفع ، والمراد منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس ، وحلول وقت انتقامه منهم ، والتنور : مايخبز فيه الخبز ، اتفقت فيه لغة العرب والعجم وأهل بيت الرجل : نساؤه وأولاده وأزواجهم ، ومجريها ومرساها : أى إجراؤها و إرساؤها ، ومعزل : أى مكان عزلة وانفراد ، وآوى : أى ألجأ ، وعصمه : حفظه ، والبلع : ازدراد الطعام والشراب بسرعة ، وغاض الماء غار فى الأرض ونضب ، والجودى : جبل بالموصل .

المعنى الجملى

هذه الآيات غاية لما ذكر قبلها من الاستعداد لهلاكهم ، ومقابلة السخرية بغير ابتئاس ولاضجر .

الايضاح

(حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) أى حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ، ونبع الماء من التنور وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، والأقرب أن يكون المراد من التنور وجه الأرض ، ويكون المعنى حتى إذا نبع الماء من وجه الأرض .

(قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) أى حتى إذا أمرنا قلنا لنوح آنئذ : احمل فى السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين ذكرا وأنثى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض .

(وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن) أى واحمل فيها أهل بيتك ذكرانا وإناثا إلا من سبق عليه القول بأنهم من المغرقين بسبب ظلمهم كما قال : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) واحمل من صدقك واتبعك من قومك .

(وما آمن معه إلا قليل) منهم ، قيل إنهم كانوا ثمانية : نوحا عليه السلام وأهله

وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، ولم يبين الله ورسوله لنا عددهم ، فحصره فى عدد معين من قبيل الحدس والتخمين ، كما لم يبين لنا أنواع الحيوان التى حملها ولا كيف حملها وأدخلها السفينة ، وقد فصل ذلك فى سفر التكوين .

(وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها) أى فحملهم نوح وقال اركبوا فيها باسم الله جريانها و إرساؤها ، فهو الذى يتولّى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، وقد يكون المعنى : إن نوحا أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله أى بتسخيره وقدرته مجراها حين تجرى ، ومرساها حين يرسيها ، لا بحولنا ولا بقوتنا .

(إن ربى لغفور رحيم) أى إن ربى لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم بذنوبهم ، بل يهلك الكافرين الظالمين منهم ، رحيم بهم إذ سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذى اقتضته مشيئته .

أخرج الطبرانى وغيره عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : باسم الله الملك الرحمن الرحيم (باسم الله مجريها) الآية » .

(وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) أى هى تجرى بهم فى موج يشبه الجبال فى علوه وارتفاعه وامتداده ، ومن كابد ما يحدث فى البحار العظيمة من الأمواج حين ماتهيجها الرياح الشديدة عرف أن المبالغة فى هذا التشبيه غير بعيدة ، فإن السفينة لتُرى كأنها تهبط فى غور عميق كواد سحيق يرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، و بعد هنيهة يرى أنها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها فى شاهق جبل تريد أن تنقضّ منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها لئلا يجرُفهم ما يفيض من الموج عليها .

ثم بين أن نوحا دعته الشفقة على ابنه فناداه كما أشار إلى ذلك بقوله :

(ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يابنىّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين)

أى وناداه حين الركوب فى السفينة ، وقبل أن تجرى بهم ، وكان فى مكان منعزل بعيد عن أبيه و إخوته ومن آمن من قومه ، يابنى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين الذين قُضِى عليهم بالهلاك .

فردّ ابنه عليه :

(قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) أى قال سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء فيحفظُنى من الغرق :

فأجابه نوح مبيّناً له خطأه :

(قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) أى قال نوح لابنه لاشىء يعْصِم أحدا فى هذا اليوم العصيب من عذاب الله الذى قضاه على الكافرين ، فليس الأمر أمر ماء يُتَّقى بالأسباب العادية ، و إنما هو انتقام من أشرار العباد الذين أشركوا بالله وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم فى البلاد ، لكنه يحفظ من رحم ويعصمه ، وقد اختص بهذه الرحمة من حملهم فى السفينة ، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتى حال بين الولد ووالده فكان من المغرقين الهالكين .

وقد وصف سبحانه هذا الطوفان فى سورة القمر قال : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ، وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » .

و إنه لمنظر تَشيب من هوله الولدان ، ماء ينهمر من السماء انهمارا ، وأرض تتفجر فتفيض ماء ثجاجا يصير بحرا متلاطم الأمواج ، تغطت من تحته الأرض بجبالها ووديانها ،

وخفيت من فوقه السماء بكواكبها وشمسها ، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء فى بدء التكوين .

ثم ذكر ماحدث بعد هلاكهم مبينا قدرته تعالى فقال :

(وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودىّ وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى وجاء نداء من الملأ الأعلى خوطبت به الأرض والسماء : يا أرض ابلعى ماءك الذى عليك والذى تفجر من باطنك ، ويا سماء كفّى عن المطر ، فلم يلبث أن غاض الماء امتثالا للأمر ، وقُضِى الأمر بإهلاك الظالمين واستقرت السفينة راسية على جبل الجودى ، وقيل هلاكا وسُحْقاً للظالمين ، وبُعداً لهم من رحمة الله بما كان من ظلمهم وفقدهم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) .

المعنى الجملى

الآيات الثلاث الأولى تبين أن حكم الله فى خلقه العدلُ بلا محاباة لولىّ ولا نبى ، وأن الأنبياء قد يجوز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ويعدّ ذلك ذنبا بالنظر إلى مقامهم الرفيع ومعرفتهم بربهم ، وذلك ماعرض له نوح عليه السلام من الاجتهاد فى أمر ابنه الذى تخلّف عن السفينة فكان من المغرقين ، كما أن فى الآية الأخيرة استدلالا على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وطلب صبره على أذى قومه .

الايضاح

(ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) أى ونادى نوح ربه إثر ندائه لابنه الذى تخلف عن السفينة ودعاه إليها فلم يستجب ، فقال يارب إن ابنى هذا من أهلى الذى وعدتنى بنجاتهم إذ أمرتنى بحملهم فى السفينة ، وإن وعدك الحق الذى لاخُلْف فيه ، وأنت خير الحاكمين بالحق ، كما قلت « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » فحكمك يصدر عن كَمالِ العلم والحكمة فلا يعرض له الخطأ ولا الحَيْف والظلم .

والخلاصة — إن نوحا كان يريد أن ينْجُو ابنه الذى تخلف عن السفينة من الغرق بعد أن دعاه إليها ، ومن البيّن أن هذا الدعاء لابد أن يكون بعد المحاورة مع ابنه قبل أن يحول بينهما الموج .

(قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) أى قال تعالى : يانوح إنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم فى الفلك لإنجائهم ، وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح : أى فهو يتنكّب الصلاح ويلتزم الفساد .

(فلا تسألن ماليس لك به علم) أى فلا تسألنى فى شىء ليس لك به علم صحيح ، وقد سمى دعاءه سؤالا ، لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله ، ومارتبه عليه من طلب نجاة ولده .

وفى الآية إيماء إلى أنه لايجوز الدعاء بطلب ماهو مخالف لسنن الله فى خلقه بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعى ، ولا بطلب ماهو محرم شرعا ، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب والتوفيق فيها والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام ، لنكثر من عمل الخير ، ونزيد من عمل البر والإحسان .

(إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) أى إنى أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون ، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه ، إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم .

وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء مانهى الله عنه نبيًّا من أولى العزم من رسله أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم مالم يعط مثله لرسله .

ثم ذكر طلب نوح المغفرة من ربه على مافَرَط منه من السؤال فقال حاكيا عنه :

(قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) أى قال نوح رب إنى ألتجىء إليك وأحتمى بك من أن أسألك بعد الآن شيئا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لى ذنب هذا السؤال الذى سوّلته لى الرحمة الأبوية وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحمنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شىء ـ أكن من الخاسرين فيما حاولته من الربح بنجاة أولادى كلهم وسعادتهم بطاعتك وأنت أعلم بهم منى .

والعبرة فى الآية من وجوه :

(١) إن ماسأله نوح لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما

كان خطأ فى اجتهادٍ بنية صالحة ، وعَدَّ هذا ذنبا ، لأنه ما كان ينبغى لمثله من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فهم يقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم حينا بعد حين .

(٢) إنه لاعلاقة للصلاح بالوراثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد ومايحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوْا معه فى السفينة كلهم مؤمنين .

(٣) إنه تعالى يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم ، ولا يحابى أحدا منهم لأجل الآباء والأجداد وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين .

(٤) إن من يغترّ بنسبه ولايعمل مايرضى ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين والأولياء الصالحين ، فهو جاهل بكتاب ربه الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) أى قال الذى بيده ملكوت كل شىء ومدبر أمر العالَم كله لنوح، بعد أن انتهى الطوفان ، وأقلعت السماء عن المطر ، وابتلعت الأرض ماءها وصارت السكنى على الأرض والعمل عليها سهلا ممكنا : يانوح اهبط من الجودى الذى استوت عليه السفينة ، متمتّعاً بسلام وتحية منا كما قال تعالى « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ » وبركات فى المعايش والأرزاق تفيض عليك وعلى من معك فى السفينة وعلى ذريات يتناسلون منهم ويتفرقون فى الأرض فيكونون أمماً مستقلا بعضها من بعض ، ومنهم أمم آخرون من بعدهم سنمتعهم فى الدنيا بالأرزاق والبركات ، ولايصيبهم لطف من ربهم ورحمة منه كما يُصيب المؤمنين ، فإن الشيطان سيغويهم ويزين لهم الشرك والظلم والبغى ، ثم يمسهم العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، لأنهم لايحافظون

على السلام ، بل يبغى بعضهم على بعض لتفرقهم واختلافهم فى هداية الدين التى بعث بها المرسلون ، ويكون جزاؤهم فى الآخرة النار و بئس القرار .

ثم ذكر لنبيّه صلى الله عليه وسلم أن هذا قصص من عالَم الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل فقال: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى هذا القصص الذى قصصته عليك من خبر نوح وقومه من أخبار الغيب التى لم تشهدها حتى تعلمها ، نوحيها إليك نحن فنعرّفكها تفصيلا ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل الوحى الذى نزل مبيّنا لها ، وربما كان يعلمها هو وقومه على سبيل الإجمال .

(فاصبر إن العاقبة للمتقين) أى فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته وما تلقى من قومك من أذى كما صبر نوح على قومه ، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين الذين يجتنبون المعاصى و يعملون الطاعات ، فأنتم الفائزون المفْلِحون ، والمصرّون على عداوتكم هم الخاسرون الهالكون .

تتمة لقصة نوح عليه السلام

هل كان الطوفان عامّا أو خاصا ؟

سئل الأستاذ الإمام محمد عبده فى ذلك ؛ فأجاب بما يلى :

ليس فى القرآن نص قاطع على عموم الطوفان ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وماورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لايوجب اليقين ، والمطلوب فى تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين .

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ماترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ أو صاحب الرأى ، ومايذكره المؤرخون والمفسرون فى هذه المسألة لايخرج عن حد الثقة بالرواية أوعدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلا قطعيا على معتَقد دينى .

من أجل هذا كانت هذه المسألة موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر فى طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخى الأمم .

فأهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان عاما لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لاتتكون إلا فى البحر ، فظهورها فى رءوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض .

و يزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عامّا ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها ، غير أنه لايجوز لمسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاما لمجرد احتمال التأويل فى آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين ألا ينفى شيئا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها و ينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلى يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك فى مثل هذه المسألة يحتاج

إلى بحث طويل وعناء شديد . وعلم غزير فى طبقات الأرض وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هَذَى برأيه بدون علم يقينىّ فهو مجازف لا يسمع له قول ،ولا يسمح له ببثّ جهالاته ، والله ورسوله أعلم اهبتصرف .

وخلاصة هذا — إن ظواهر القرآن والأحاديث تدل على أن الطوفان كان عامّا شاملا لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عاما الأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملئون الأرض ، وكذلك وجود الأصداف والحيوانات البحرية فى قُنن الجبال لا يدل على أنها من أثر ذلك الطوفان ، بل الأقرب أنه كان من أثر تكوّن الجبال وغيرها من اليابسة فى الماء ، فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدودة لا يكفى لحدوث ماذكر فيها .

ولما كانت هذه المسألة التاريخية ليست من مقاصد الدين لم يبينها بنص قطعى ، ومن ثم نقول إنه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت علم طبقات الأرض (الجيلوجيا) خلافه فلا يضيرنا ، لأنه لا ينقض نصّا قطعيا عندنا .

حادثة الطوفان

فى القرآن والتوراة والتاريخ القديم

ذكرنا فيما سلف أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن ، وأن مافيه من قصص الرسل مع أقوامهم فإنما هو بيان لسنة الله فيهم .

وذكرنا أيضا أن قصة نوح عليه السلام جاءت فى عدة سور فى كل سورة منها ماليس فى سائرها ، ولم يذكر من حادثة الطوفان إلا مافيه العبرة والموعظة .

وجاءت هذه القصة فى سفر التكوين فى أربعة فصول ذكر فى أولها سبب الطوفان وهو فى جملته على نحو ما جاء فى القرآن الكريم إلا أن الأسلوب على نحو أساليب التوراة ، وذكر فى الرابع منها رجوع المياه من الأرض بالتدريج واستقرار الفلك على جبل أراراط ثم خروج نوح ومن معه من السفينة .

وقد ورد فى تواريخ أكثر الأمم القديمة ذكر الطوفان ، منها ماهو موافق لما فى سفر التكوين ، ومنها ماهو مخالف له ؛ فروى اليونان خبرا عن الطوفان أورده أفلاطون قال : إن كهنة المصريين قالوا لسولون (الحكيم اليونانى) إن السماء أرسلت طوفانا غيّر وجه الأرض، ورُوى عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشر بفعل (اهريمان) إله الشر ، وقالوا إن هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه ، ولكن المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا إنه كان خاصا بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان .

عمر نوح عليه السلام

جاء فى الكتاب الكريم فى سورة العنكبوت : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » .

وجاء فى سفر التكوين نحو من هذا ، وقد اشتبه الأمر على الناس فى أزمنة مختلفة حتى زعم بعضهم أن السنة عند المتقدمين أقل من السنة عند أهل القرون المعروفة بعد تدوين التاريخ ، ولا دليل على هذا .

والذى يظهر أن أعمار آدم وذريته إلى ماقبل الطوفان أو قبل ما كشف من آثار التاريخ لاتقاس بما عرف بعد ذلك ، لأن معيشة الإنسان الفطرية كانت أسلم للأبدان وأقل توليدا للأمراض : وقول الله هو الحق و يجب الإيمان به على كل حال ، قال الشاعر :

نجيت يارب نوحا واستجبت له ... فى فلكٍ ماخرٍ فى اليمّ مشحونا
وعاش يدعو بآيات مبيِّنة ... فى قومه ألف عام غير خمسينا

قصة هود عليه السلام

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

المعنى الجملى

هذا القصص ذكر فى سورة الأعراف بأسلوب ونظم يخالف ماهنا ، وفى كل منهما من العظة والعبرة ماليس فى الآخر ، وسيأتى فى السور التالية بسياق آخر .

وقد جاء فى بعض الروايات أن هودا أول من تكلم بالعربية ، فهو أول رسول عربى من ذرية نوح ، وآخر رسول هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو عربى أيضا .

الايضاح

(و إلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) أى وأرسلنا إلى عاد الأولى أخاهم فى النسب والوطن هودا فقال لهم : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره فلا تعبدوا من دونه وثناً ولا صنما ، فما أنتم فى عبادتكم غيره من الأنداد والشركاء إلا مفترون الكذب عليه بتسميتكم إياهم شفعاء تتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم وترجون النفع وكشف الضر عنكم بجاههم عنده.

(ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) أى ياقوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله والبراءة من الأوثان أجرا فتتهمونى بأنى أريد المنفعة لنفسى ، ما ثوابى الذى أرجوه على تبليغى إياكم إلا على الله الذى خلقنى على الفطرة السليمة مبرأ من هذه البدع الوثنية التى ابتدعها قوم نوح حين صنعوا التماثيل لحفظ ذكرى الصالحين ، فزين لهم الشيطان تعظيم هذه التماثيل فعبدوها ، أفلا تعقلون ما يقال لكم فتميزوا بين مايضر وما ينفع ، و إنى لكم ناصح أمين فلا أغشكم فيما أدعوكم إليه .

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) السماء هنا : المطر ، والمدرار : الكثير الدرور ، وأصله فى كثرة درّ اللبن ، يقال درّت الشاة تدرّ فهى دار : أى كثر فيض لبنها ، أى ياقوم استغفروا ربكم من الشرك ثم أخلصوا له التوبة ، يرسل عليكم المطر متتابعا من غير ضرر (وقد كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمائر) ويزدكم عزّا إلى عزكم وقد كانوا يهتمون بذلك ويفخرون على الناس ، وقد بسط الله لهم الأجسام وأعطوا القوة فيها كما قال تعالى : « فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ » .

(ولا تتولوا مجرمين) أى ولا تعرضوا عما دعوتكم إليه مما ربما كان سببا فى نعيم العيش وسعة الرزق وزيادة القوة ، وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من الإجرام .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تبليغ هود عليه السلام قومه دعوة ربه ، ذكر هنا ردّ قومه لتلك الدعوة فى جحودهم للبينة ، ثم إنذاره لهم .

الايضاح

(قالوا ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين) أى قالوا ياهود : ماجئتنا بحجة واضحة تدل على صحة دعواك أنك مرسل من عند اللّه ، وقد قالوا ذلك عنادا منهم وجحودا للحق ، ومانحن بتاركى عبادة آلهتنا بسبب قولك الذى لا بيّنة عليه ، ومانحن بمصدقين ماجئت به .

ثم بالغوا فى الردّ وقالوا :

(إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) أى لانجد من قول نقوله فيك إلا أن بعض آلهتنا أصابك بمسّ من جنون أو خَبَل لإنكارك لها وصدّك إيانا عن عبادتها.

والخلاصة — إن ماتقوله لايصدر إلا عمن أصيب بشىء اقتضى خروجه عن قانون العقل ، فلا يعتدّ به لأنه من قبيل الخرافات والهذيانات التى لاتصدر إلا عن المجانين فكيف نؤمن بك ؟ .

والخلاصة — إنهم ترقوا فى حجاجهم من سيئ إلى أسوأ ، إذ قالوا أولا ماجئتنا بالبينة : ثم نفَوْا تصديقهم له مع كونه مما يقبل التصديق ، ثم نفَوْا عنه تلك المرتبة أيضا.

ثم ذكر رده عليهم على طريق الحكاية .

(قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم) .

هذا جواب منه عن مقالتهم وهو يتضمن جملة أمور :

(١) البراءة من إشراكهم الذى اقترفوه ولا حقيقة له .

(٢) إشهاد الله على ذلك ثقة منه بأنه على بيّنة من ربه .

(٣) إشهادهم أيضا على ذلك إعلاما منه بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه وضرره :

(٤) طلبه منهم أن يُجْمِعوا كلهم على الكيد له والإيقاع به بلا إمهال ولا تأخير إن استطاعوا .

وفى هذا دليل واضح على أنه لا يخافهم ولا يخاف آلهتهم ، وقد صدرت مثل هذه المقالة عن نوح عليه السلام إذ قال « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ » كما لقن الله نبيه مثل هذا بقوله «قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ » .

(٥) عدم الخوف منهم ومن آلهتهم ، إذ وكل أمر حفظه وخذلانهم إلى ربه وربهم ، ومالك أمره وأمرهم ، المتصرف فى كل مادب على وجه الأرض والمسخر له وهو سبحانه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب والعقاب ، كافٍ لمن اعتصم به ، وهو لا يسلّط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ولا يفوته ظالم .

(فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) أى فإن استمررتم على ما أنتم عليه من التولّى والإعراض وأبيتم إلا تكذيبى ، فقد أبلغتكم رسالة ربى التى أرسلنى بها إليكم ، وليس علىّ غير البلاغ وقد لزمتكم الحجة وحقت عليكم كلمة العذاب .

(ويستخلف ربى قوما غيركم) أى إن الله يهلككم ويستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين .

(ولا تضرونه شيئا) بتوليكم عن الإيمان ، فإنه غنىٌّ عنكم وعن إيمانكم ، وهو بمعنى قوله « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » .

(إن ربى على كل شىء حفيظ) أى إن ربى رقيب على كل شىء قائم بالحفظ

عليه على ما اقتضته سننه وتعلقت به إرادته ، ومن ذلك أنه ينصر رسله ويخذل أعداءهم إذا أصروا على الكفر بعد قيام الحجة عليهم .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه إصرار قوم هود على العناد والعتو وتكذيب هود فيما جاء به من الآيات ـ ذكر هنا عاقبة أمره وأمرهم ، وأنه تعالى أصابه برحمة من لدنه ، وأنزل بهم العذاب الغليظ ، كفاء كفرهم بآياته وعصيان رسله .

الايضاح

(ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ أى ولما نزل عذابنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة من لدنا وميزناهم عن الكافرين فيما نزل بهم من ذلك العذاب الغليظ ، وهو الريح العقيم التى لا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما فصل ذلك فى سورة القمر بقوله : « إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » .

ثم ذكر سبب ما نزل بهم من البلاء فقال :

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أى وقد أحللنا بهم نقمتنا ، لأنهم جحدوا بآيات ربهم وحججه ، وعصوا رسله الذين

أرسلهم إليهم للدعاء إلى توحيده واتباع أمره ، وهم وإن كانوا قد عصَوْا رسولا واحدا فإن عصيان واحد منهم عصيان للجميع ، لأنه ما كان إلا لنفى الرسالة نفسها بدعوى أن الرسول لايكون بشرا .

وقد اتبع سوادهم ودهماؤهم كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة العتاة المستبدين الذين يأبَوْن الحق ولا يذعنون له وإن قام عليه الدليل .

(وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أى ولحقت بهم لعنة فى هذه الدنيا ، فكان كل من علم بحالهم ومن أدرك آثارهم ، وكل من بلّغه الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم ، وتلحقهم أيضا يوم القيامة حين ما يلعن الأشهاد الظالمين أمثالهم :

قال قتادة : تتابعت عليهم لعنتان من الله ، لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة .

ثم أكد كفرهم بشهادته عليهم فقال :

(ألا إن عادا كفروا ربهم) أى إن عادا كفروا نعمه عليهم بجحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله كبرا وعنادا .

(ألا بعدا لعاد قوم هود) هذا دعاء عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة ، وهو تسجيل عليهم باستحقاقه وإعلامٌ بدوامه .

قصة صالح عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)

تفسير المفردات

أعمرته الأرض واستعمرته إياها : إذا فوضت إليه عمارتها ، والريب، الظن والشك يقال رابنى الشىء يَريبنى : إذا جعلك شاكا ، وغير تخسير : أى غير إيقاع فى الخسران باستبدال الشرك بالتوحيد .

المعنى الجملى

جاء هذا القصص فى بيان دعوة صالح لقومه ثمود وردهم لها بعد احتجاجه عليهم ، وصالح هو الرسول الثانى من العرب ، ومساكن قبيلته ثمود ـ الحِجْر وهى بين الحجاز والشام وسيأتى ذكر قصصهم فى سورة الشعراء والنمل والقمر والحجر وغيرها ، وفى كل منها من الموعظة والعبرة مالا يغنى عنه غيره .

الايضاح

(وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) الكلام فى هذا كالكلام فى نظيره السابق فى تبليغ هود عليهما السلام .

(هو أنشأكم من الأرض) أى ابتدأ خلقكم منها ، فهى المادة الأولى التى خلق منها آدم أبو البشر ، ثم خلقكم أنتم من سلالة من طين بالوسائط ، فإن النطفة التى تتحول إلى علقة ثم إلى مضغة ، ثم إلى هيكل عظمى يحيط به لحم ـ أصلها دم . والدم من الغذاء وهو إما من نبات الأرض ، وإما من اللحم الذى يرجع إلى النبات بعد طور أو أكثر .

(واستعمركم فيها) أى جعلكم عُمّاراً لها فقد كانوا زُرّاعاً وصُناعا وبنائين كما جاء فى الآية الأخرى « وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ » .

والخلاصة — إنه هو المنشىء لخلقكم والممدُّ لكم بأسباب العِمْران والنعم فى الأرض فلا ينبغى أن تعبدوا فيها غيره ، فهو ذو الفضل عليكم ، وشكرانه واجب عليكم بإخلاص العبادة له وحده .

(فاستغفروه ثم توبوا إليه) أى فاسألوه أن يغفر لكم ماتقدم من ذنوبكم بإشراككم به سواه ، وبما اجترحتم من الآثام ، ثم ارجعوا إليه بالتوبة كلما فرَط منكم ذنب عسى أن يغفر لكم .

(إن ربى قريب مجيب) أى قريب من عباده لايخفى عليه استغفارهم ولا الباعث عليه ومجيب لدعاء من دعاه وسأله إذا كان مؤمنا مخلصا .

ونحو الآية ماتقدم فى سورة البقرة من قوله « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .

ثم ذكر ماردوا به عليه .

(قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوّا قبل هذا) أى قد كنت عندنا موضع الرجاء لمهام أمورنا لما لكَ من رجاحة عقل وأصالة رأى ، ولحسبك ونسبك قبل هذه الدعوة التى تطلب بها إلينا أن نبدل ديننا زعما منك أنه باطل ، فالآن قد انقطع رجاؤنا منك

ثم ذكروا أسباب انقطاع رجائهم بقولهم :

١ — (أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا) أى عجيب منك أن تنهانا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من قبلنا ، وقد سرنا نحن على نهجهم ولم ينكره أحد علينا ولم يستقبحه ، فكيف تنكره ؟ .

٢ — (وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب) أى وإنا لفى شك من دعوتك إلى عبادته تعالى وحده دون أن نتوسل إليه بأحد من الشفعاء المقربين عنده ، ولا أن نعظم ما وضعه آباؤنا لهم من صور وتماثيل تُذَكّرنا بهم ، فكل هذا يوجب الريب والتهمة وسوء الظن وعدم الطمأنينة إلى دعوتك .

فأجابهم صالح :

(قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة منه) أى أخبرونى عن حالى معكم إن كنت على برهان وبصيرة من ربى مالك أمرى وآتانى من قِبَله رحمة خاصة من عنده جعلنى بها نبيّا مرسلا إليكم .

(فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟) أى فمن يمنعنى من عذابه إذا أنا كتمت الرسالة ، أو كتمت ما يسوءكم من بطلان عبادة الأصنام والأوثان تقليدا لآبائكم — أى لا أحد يدفع ذلك عنى فى هذه الحال فلا أبالى إذاً بقطع رجائكم فىّ ولا بما أنتم فيه من شك وريب فى أمرى .

ثم ذكر مآل أمره إذا هو اتبعهم فقال :

(فما تزيدوننى غير تخسير) أى فما تزيدوننى باتقاء سوء ظنكم وارتيابكم غير إيقاعى فى الخسران بإيثار ما عندكم على ما عند الله واشتراء رضاكم بسخطه تعالى .

وَيَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)

تفسير المفردات

الآية : المعجزة الدالة على صدق نبوته ، وذروها : اتركوها ، وعقر الناقة بالسيف : قطع قوائمها به أو نحرها ، والتمتع : التلذذ بالمنافع ، والدار : البلد كما يقال ديار بكر : أى بلادهم ، وكذب فلانا حديثا وكذبه الحديث : أى كذب عليه فيه ، والوعد : خبر موقوت كأن الواعد قال للموعود إننى أفى به فى وقته ، فإن وفى فقد صدق ولم يكذبه ، وأصل الأخذ : التناول باليد ، ثم استعمل فى الأشياء المعنوية كأخذ الميثاق

والعهد وفى الإهلاك ، والصيحة : الصوت الشديد والمراد بها هنا صيحة الصاعقة ، وجاثمين : أى ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينجُ منهم أحد ، وغَنِي بالمكان : أقام فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن قومه قالوا له إننا لفى شك مما تدعونا وسألوه الآية على ما دعاهم إليه ـ ذكر هنا أنه قال لهم إن آيته على رسالته هى الناقة ، وأن من يمسها بسوء يصيبه عذاب أليم .

الايضاح

(وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) أى ياقومى هذه ناقة ممتازة عن سائر الإبل بما ترون من أكلها وشربها وجميع شئونها ، قد جعلها الله لكم آية بينة منه تدل على صدق وعلى إهلاككم إن أنتم خالفتم أمره فيها .

(فذروها تأكل فى أرض الله) أى فاتركوها تأكل مما فى الأرض من المراعى وليس عليكم مؤنتها .

(ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) أى ولا يمسها أحد منكم بأذي فيأخذكم عذاب عاجل لا يتأخر عن مسكم إياها بسوء إلا يسيرا .

ثم ذكر أنهم لم يستمعوا نصحه فقال :

(فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب) أى فكذبوه فعقروها فقال لهم صالح : استمتعوا بحياتكم فى دار الدنيا ثلاثة أيام ، وهذا الأجل الذى أُجِّلْتُم وعدٌ من الله وعدكم حين انقضائه بالهلاك ونزول العذاب ، لم يكْذِبْكم فيه من أعلمكم ذلك .

ثم ذكر وقوع ما أُوعِدوا به فقال :

(فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ)

أى فلما جاء ثمود عذابنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة خاصة منا ، ونجيناهم من عذاب ذلك اليوم ونكاله باستئصالهم من الوجود ؛ وبما يتبعه من سوء الذكر والطرد من رحمة الله .

ثم بيَّن عظيم قدرته على التنكيل بأمثالهم من المشركين فقال :

(إن ربك هو القوى العزيز) أى إن ربك أيها الرسول الذى فعل هذا بهم قادر أن يفعل مثل ذلك بقومك إذا أصروا على الجحود ، إذ لا يعجزه شىء ، وهو الغالب على أمره .

ثم ذكر مآل أمرهم وشديد عقابه بهم فقال :

(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى فأخذتهم صيحة الصاعقة التى نزلت بهم فأحدثت رجفة فى القلوب وزلزلة فى الأرض وصعقوا بها جميعا فانكبُّوا على وجوههم لم ينج منهم أحد .

(كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بُعدا لثمود) أى كأنهم لسرعة زوالهم وعدم بقاء أحد منهم لم يقيموا فى ديارهم البتة ، وما سبب هذا إلا أن كفروا بآيات ربهم فجحدوها ، ألا بعدا وهلاكا لهم .

بشارة الملائكة لابراهيم وامرأته باسحاق

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟

إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

تفسير المفردات

فما لبث : أى ما أبطأ ، وحنيذ : أى مشوىّ بالرضَف وهى الحجارة المحْماة ، ولا تصل إليه : أى لا تمتد للتناول ، ونكره وأنكره : ضد عرفه، وأوجس القلب فزعا: أحسّ به ، ولوط : هو ذلك النبى الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم وأول من آمن به ، ويا ويلتنا : أصلها ياويلى : وهى كلمة تقال حين يفجأ الإنسانَ أمْرٌ مهمٌّ من بليّةٍ أوفجيعه أو فضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، والبعل : الزوج وجمعه بعولة ، وأمر الله : قدرته وحكمته ، وحميد : أى تحمد أفعاله ، ومجيد : أى كثير الخير والإحسان .

الايضاح

(ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) أى ولقد جاءت رسلنا من الملائكة ، واختلفت الرواية فيهم ، فعن عطاء إنهم جبريل وميكائيل و إسرافيل عليهم السلام ، وعن غيره إنهم جبريل وسبعة أملاك معه ، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف من الوحى ولم يثبت ، والبشرى : البشارة بالولد لقوله : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ » الآية وقوله فى الذاريات : « وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ » .

(قالوا سلاما) أى قالوا : نسلم عليك سلاما .

(قال سلام) أى قال : عليكم سلام .

(فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى فما أبطأ أن جاءهم بعجل مشوىّ على الحجارة المحماة (وقد اهتدى البشر إلى شي اللحم من صيد وغيره على الحجارة المحماة بحر الشمس قديما قبل الاهتداء إلى إنضاجه بالنار) .

وجاء فى سورة الذاريات : « فَرَاغَ إِلى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ » وفى هذا دليل على أنه كان مشويًّا معدا لمن يجىء من الضيوف ، وربما كان قد شوى عند وصولهم بلا إبطاء ولا تريث .

(فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة) أى فلما رأى إبراهيم أيديهم لاتمتد إلى الطعام الذى قدم إليهم نكر ذلك منهم ووجده على غير ما يعهد من الضيوف (فالعادة قد جرت أن الضيف إذا لم يَطْعَم مما قدِّم إليه ظُنّ أنه لم يجىء بخير وأنه يحدّث نفسه بشر) وأحس فى نفسه خوفا وفزعا ، حين شعر أنهم ليسوا بشرا وربما كانوا من ملائكة العذاب .

(قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) أى قالوا له حين علموا مايساور قلبه من الخوف : لاتخف ، فنحن لانريد بك سوءا ، وإنما أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم ، وكانت ديارهم قريبة من دياره ، وجاء فى سورة الحجر أنه صارحهم بالخوف فطمأنوه وبشروه بغلام عليم ، وكذا فى سورة الذاريات .

(وامرأته قائمة فضحكت) أى وكانت امرأة إبراهيم واقفة للخدمة فضحكت سرورا بالأمن من الخوف ، أو لقرب عذاب قوم لوط لكراهتها لسيرتهم الخبيثة .

(فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) أى فبشرناها بالتبع لبشارة إبراهيم بإسحاق ، ومن بعد إسحاق يعقوب أى إنه سيكون لإسحاق ولد أيضا كما قال تعالى : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » :

(قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشىء عجيب) أى قالت سارّة لما بشرت بإسحاق : كيف ألد وقد بلغت السن التى لايلد من كان قد بلَغها من الرجال والنساء ، وهذا زوجى شيخا كبيرا لايولد لمثله ، إن هذا الذى بشرتمونا به لشىء عجيب مخالف لسنن الله التى سلكها فى عباده .

وقد جاء فى سفر التكوين (إن إبراهيم كان عمره يومئذ مائة سنة ، وإن زوجه

سارة كانت ابنة تسعين سنة) ومثلها لا يلد ، بل الغالب أن ينقطع حيض المرأة فى سن الخمسين فيبطل استعدادها للحمل والولادة ، على أنها كانت عقيما كما فى سورة الذاريات .

وربما كانت زوجه سارة علمت من حال زوجها بعد ولادة هاجر لابنه إسماعيل بمدة قليلة أو كثيرة أنه أصبح غير مستعد لمباشرة النساء ، أو كانت تعتقد كما يعتقد أن مثله فى تلك السن لا يولد له .

(قالوا أتعجبين من أمر الله) أى قالوا لها : لا ينبغى لك أن تعجبى من شىء يصدر عن أمر الله الذى لا يعجزه شىء كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

والله الخالق للسنن ، والواضع لنظام الأسباب هو الذى أراد أن يستثنى منها واقعة بعينها يجعلها من آياته لحكمة من حكمه أرادها لبعض عباده .

(رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى رحمة الله وبركاته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة تتوارث فى نسلكم إلى يوم القيامة ، وما تلك بأول آية لإبراهيم فقد نجاه من نار قومه الظالمين ، وآواه إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

(إنه حميد مجيد) أى إنه جل ثناؤه مستحق لجميع المحامد ، حقيق بالخير والإحسان .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

تفسير المفردات

الروع : (بالفتح) الخوف والفزع : (وبالضم) النفس ، والحليم : الذى لا يحب المعاجلة بعقاب ، والأوّاه : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، والمنيب الذى يرجع إلى الله فى كل أمر ، وغير مردود : أى غير مدفوع لا بجدال ولا بشفاعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه بعض ما جرى بين إبراهيم والملائكة ، وصل به بعضا آخر كالتتمة له .

الإيضاح

(فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) أى فلما سُرِّى عن إبراهيم وانكشف له ما أوجس منه الخيفة ، إذ علم أن هؤلاء الرسل من ملائكة العذاب ، وجاءته البشرى بالولد واتصال النسل أخذ يجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط (وجعلت مجادلتهم مجادلة لله لأنها مجادلة فى تنفيذ أمره) وهذه المجادلة قد فصلت فى سورة العنكبوت فجاء فيها :

« وَلَما جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » .

كما جاءت هذه المجادلة فى الفصل الثامن عشر من سفر التكوين من التوراة ففيه : (إن الرب ظهر لإبراهيم وهو جالس فى باب الخيمة ، فظهر له ثلاثة رجال فاستضافهم وأتى لهم بعجل وخبز مَلَّةٍ فأكلوا وبشروه بالولد ، فسمعت امرأته سارة فضحكت وتعجبت لكِبَرها وانقطاع عادة النساء عنها . فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة ، هل يستحيل على الرب شىء ؟ ... وانصرف الرجال (أى الملائكة) من هناك وذهبوا نحو سدوم (قرية قوم لوط) وإبراهيم لم يزل قائما أمام الرب فتقدم إبراهيم وقال : أفتهلك البارّ مع الأثيم ؟ عسى أن يكون هناك خمسون بارا فى المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه ؟ فقال الرب إن وجدت فى سدوم خمسين بارا فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم ، ثم كلمه إبراهيم مثل هذا فى خمسة وأربعين ثم فى أربعين ثم فى ثلاثين ثم فى عشرين ثم فى عشرة ، والرب يعده فى كل من هذه

الأعداد بأنه من أجلهم لايهلك القوم ... وذهب الرب عند مافرغ من الكلام مع إبراهيم إلى مكانه) اهـ .

(إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب) أى إنه جادل الملائكة فى عذاب قوم لوط ، لأنه كان حليما لايعجل بالانتقام من المسىء ، كثير التأوّه مما يسوء الناس ويؤلمهم ، يرجع إلى الله فى كل أموره .

(يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) أى يا إبراهيم أعرض عن الجدال فى أمر قوم لوط والاسترحام لهم ، إنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذى لايُرد عن القوم المجرمين ، وإنهم آتيهم عذاب لاسبيل إلى دفعه ورده بجدل ولاشفاعة ولا بغيرهما .

وفى هذه الآية عبرة لمن يتخذ من الله أندادا من أوليائه ، ويزعم أنهم يتصرفون فى الكون كما يريدون ولا يردّ لهم طلب كما قال : « لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وفيها أكبر رد عليهم فيما يتخرصون به ، فهذا جدّ الأنبياء وأفضلهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهو إبراهيم نهاه الله عن التعرض لما قضى به فأراده .

قصة لوط عليه السلام

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ

مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)

تفسير المفردات

سىء بهم : أى وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم ، الذرع والذراع : منتهى الطاقة ، يقال مالى به ذرع ولاذراع : أى مالى به طاقة ، ويقال ضقت بالأمر ذرعا إذا صعب عليك احتماله ، والعصيب : الشديد الأذى ، ويقال هُرِع وأُهْرِع (بالبناء للمفعول) : إذا حُمِل على الإسراع ، وقال الكسائى لايكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعْدة من برد أو غضب أو حُمَّى أو شهوة ، ولا تخزون : أى لاتخجلونى ، والضيف يطلق على الواحد والجمع ، والرشيد : ذو الرشد والعقل ، لو أن لى بكم قوة : أى على الدفع بنفسى ، أوآوى إلى ركن شديد من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين .

الإيضاح

فى سفر التكوين : إن لوطا عليه السلام ابن هرون أخى إبراهيم صلى الله عليه وسلم وأنه هاجر معه من مسقط رأسهما (أور الكلدانيين) فى العراق إلى أرض الكنعانيين وسكن إبراهيم فى أرض كنعان ، ولوط فى سَدُوم بالأُرْدُن ، ويظن بعض الباحثين أن بحيرة لوط غمر موضعها بعد الخسف ، ويقال إن الباحثين فى العصر الحاضر عثروا على آثارها .

(ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) أى ولما جاءت ملائكتنا لوطا ساءه مجيئهم ، وعجز عن احتمال ضيافتهم ، لما كان يتوقعه من اعتداء قومه عليهم كعادتهم (وقد روى أنهم جاءوه بشكل غلمان حسان الوجوه) وقال هذا يوم شديدٌ شرُّه ، عظيمٌ بلاؤه .

(وجاءه قومه يهرعون إليه) أى وجاء لوطا قومه يهرولون كأن سائقا يسوقهم مما بهم من طلب الفاحشة .

(ومن قبل كانوا يعملون السيئات) أى ومن قبل هذا المجىء كانوا يعملون السيئات الكثيرة التى أفظعها ماأنكرته الفطر البشرية والشرائع الإلهية والوضعيه ، وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء ومجاهرتهم بها فى أنديتهم كما حكى الله عنهم بقوله : « أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ »

(قال ياقوم هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم) فتزوجوهن ، أراد ببناتى بنات قومه لأن النبى فى قومه كالوالد فى عشيرته كما قال ابن عباس ، ويدخل فيهن نساؤهم المدخول بهن وغيرهن من المعدّات للزواج ، ومراده أن الاستمتاع بهن بالزواج أطهر من التلوث برجس اللواط ، فإنه يكبح جماح الشهوة مع الأمن من الفساد .

(فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى) أى فاخشَوْا الله واحذروا عقابه فى إتيانكم الفاحشة التى تطلبونها ؛ ولا تذلونى وتمتهنونى بفضيحتى فى ضيوفى ؛ فإن إهانة الضيوف إهانة للمَضيف وفضيحة لهم .

(أليس منكم رجل رشيد) أى أليس منكم رجل ذو رشد وحكمة ينهى من أرادوا ركوب الفاحشة من ضيوفى ، فيحول بينهم وبين مايريدون .

(قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) أى لقد علمت من قبلُ أنه ليس لنا فى بناتك من رغبة فى تزوّجهن فتصرفنا بعَرْضهن علينا عما نريده ، وقد يكون المعنى لقد علمت الذى لنا فى نسائنا اللواتى تسميهن بناتك من حق الاستمتاع ومانحن عليه معهن ، فلا ينبغى عرضك إياهن علينا لتصرفنا عما نريده .

(وإنك لتعلم مانريد) أى وإنك لتعرف حق المعرفة مانريد من الاستمتاع بالذكرانَ ، وإننا لانؤثر عليه شيئا .

والخلاصة — إنهم أجمعوا أمرهم على فعل مايريدون .

(قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) أى قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضىّ لما قد جاءوا له من طلب الفاحشة وأيس من أن يستجيبوا له إلى شىء مما عرض عليهم : لو أن لى بكم قوة بأنصار تنصرنى عليكم وأعوان تعينى ، أو أنضم إلى عشيرة تجيرنى منكم لحلت بينكم و بين ماجئتم تريدونه منى فى أضيافى .

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

تفسير المفردات

السرى : (بالضم) و الإسراء فى الليل : كالسير فى النهار ، والقطع من الليل : الطائفة منه ، والسجيل : الطين المتحجر كما جاء فى الآية الأخرى « حجارة من طين » . وقال الراغب : هو حجر وطين مختلط أصله فارسىّ فعرِّب ، ومنضود : أى وضع بعضه على بعض وأعد لعذابهم ، ومسومة : أى لها سومة (بالضم) أو علامة خاصة فى علم ربك .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه مايدل على أن لوطا كان قلقا على أضيافه مما يوجب الفضيحة لهم ، وذلك قوله : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ » ذكر هنا أن الرسل بشروه بأن قومه لن يصلوا إلى ماهموا به ، وأن الله مهلكهم ومُنْجِيه مع أهله من العذاب .

الإيضاح

(قالوا يالوط إنا رسل ربك) أى قالت الملائكة للوط بعد أن رأوا شديد الكرب الذى لحقه بسببهم وتمنيه أن يجد قوة تدفعهم عن أضيافه : إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاكهم وتنجيتك من شرهم .

(لن يصلوا إليك) ولا إلى ضيفك بمكروه ، فهوّن عليك الأمر ، وحينئذ طمس الله أعينهم فلم يعودوا يبصرون لوطا ولا من معه كما جاء فى سورة القمر : « وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ » فانقلبوا عميا يتخبطون لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم وصاروا يقولون : النجاءَ النجاءَ فإن فى بيت لوط قوما سحرة .

(فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فاخرج من هذه القرى أنت وأهلك ببقية من الليل تكفى لتجاوز حدودها، وجاء فى سورة الذاريات: « فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

(ولا يلتفت منكم أحد) أى ولا ينظر أحد إلى ماوراءه ليجدّوا فى السير أولئلا يروا ماينزل بقومهم من العذاب فيرقّوا لهم ، وجاء فى سورة الحجر : « وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ » .

(إلا امرأتك) فقد كان ضَلْعها مع القوم وكانت كافرة خائنة .

(إنه مصيبها ماأصابهم) أى إنه مصيبها ذلك العذاب الذى أصابهم ومقضىّ عليها بذلك ، فهو واقع لا بد منه .

ثم علل الإسراء ببقية من الليل فقال :

(إن موعدهم الصبح) أى موعد عذابهم الصبح ابتداء من طلوع الفجر إلى الشروق كما جاء فى سورة الحجر « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ » .

ثم أكد ماسبق فأجاب عن استعجال لوط لهلاكهم فقال :

(أليس الصبح بقريب) أى أليس موعد الصبح بموعد قريب لم يبق له إلا ليلة واحدة فانجُ فيها بأهلك .

وحكمة تخصيص هذا الوقت أنهم يكونون مجتمعين فى مساكنهم فلا يُفلتُ منهم أحد.

(فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) أى فلما جاء أمرنا بالعذاب وقضاؤنا فيهم بالهلاك قلبنا قراها كلها وخسفنا بها الأرض .

وقد جرت سنة الله أنه إذا أراد خسف أرض فى جهة ما أحدث تحتها فراغا بتفاعل الأبخرة التى فى جوفها فيندكّ الجزء الأعلى وينهدم ويغور إلى أسفل إماعموديا إن كان الفراغ بقدر ما انخسف من الأرض وإما مائلا إلى جانب من الجوانب إن كان الفراغ تحته أوسع ، وفى بعض هذه الحالات يكون عاليها سافلها ؛ ويرجع بعض علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) أن قرى قوم لوط خُسِف بها تحت الماء المعروف ببحيرة لوط أو بحر لوط ، وقد عثر الباحثون على بعض آثارها من عهد قريب .

وقد روى المفسرون فى خسفها من الخرافات مالم يثبته نقل ولا يقبله عقل ، فقالوا إن جبريل عليه السلام قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعِد بها إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج ونهيق الحمير ، ثم قلبها قلبا مستويا فجعل عاليها سافلها ، مع أن المشاهدة فى هذا العصر أثبتت أن الطائرات المطاردة التى تحلّق فى الجو تصل فقط إلى حيث يخفّ ضغط الهواء وتستحيل الحياة حينئذ ، ومن ثم يضعون فيها من أو كسجين الهواء مايكفى استنشاقه وتنفسه للحياة فى طبقات الجوّ العليا ثم يصعدون فيها ؛ وقد أشار الكتاب الكريم إلى مايكون للتصعيد فى جو السماء من التأثير فى ضيق الصدر وعسر التنفس بقوله : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ » .

(وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك) أى وأمطرنا عليهم قبل القلب أو فى أثنائه حجارة من سجيل : أى من طين متحجر كما جاء فى سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ » ومثل هذا المطر يحدث

عادة بإرسال الله تعالى ريحا شديدة تحمل بعض الأحجار من المستنقعات أو الأنهار فتلقيها حيث يشاء الله .

وهذا السجيل قد نضد وتراكب بعضه فى أثر بعض بحيث يقع طائفة بعد طائفة ، وقد وُضِع على تلك الأحجار سُومة : أى علامة خاصة فى علم ربك بحيث لاتصيب غير أهلها .

وقد يكون المعنى : إنه سخرها عليهم وحكّمها فى إهلاكهم بحيث لايمنعها شىء ، من قولهم : سوّمت فلانا فى الأمر إذا حكّمته فيه وخلّيته وما يريد ، لاتثنى له يد فى تصرفه .

ويرى بعض المفسرين أن التسويم كان حسيا بخطوط فى ألوانها أو بأمثال الخواتيم عليها أو بأسماء أهلها ، وكل ذلك من أمور الغيب التى لاتثبت إلا بسلطان ونص من خاتم الرسل ، وأنى هو ؟ .

(وما هى من الظالمين ببعيد) أى وماهذه القرى التى حل بها العذاب بمكان بعيد عنكم أيها المشركون من أهل مكة الظالمون لأنفسهم بتكذيبك والمراة فيما تنذرهم به ، بل هى قريبة منكم على طريقكم فى رحلة الصيف إلى الشام كما قال فى سورة الصافات : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى وإنكم لتمرون على آثارهم ومنازلهم فى أسفاركم وقت النهار و بالليل ، أفلا تعتبرون بما حل بهم .

وفى هذا عبرة للظالمين فى كل زمان و إن اختلف العذاب باختلاف الأحوال وأنواع الظلم كثرة وقلة ومقدار أثره فى الأمة من إفساد عام أو خاص .

قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)

المعنى الجملى

تقدم ذكر قصة شعيب فى سورة الأعراف ، وذكرت هنا مرة أخرى ، وقد جاء فى كل موضع منهما من العظات والأحكام والحكم ماليس فى الآخرة مع الإحكام فى السبك وحسن الرّصْف ، والسلامة من التعارض والاختلاف والتفاوت .

الايضاح

(و إلى مدين أخاهم شعيباً) أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً .

(قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى فلما أتاهم قال ياقوم اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا معه غيره ، فما لكم من إله إلا هو .

وقد جرت سنة الأنبياء أن يبدءوا بالدعوة إلى التوحيد، لأنه جِذْر شجرة الإيمان، ثم يتبعونه فالأهم بالأهم فيما يرون لدى أقوامهم ، ومن ثم ثنى بالنهى عن نقص الكيل والميزان ، لأن أهل مدين اعتادوا ذلك فقال :

(ولا تنقصوا المكيال والميزان) أى ولا تنقصوا الناس حقوقهم فى مكيالكم وميزانكم كما هى عادتكم ، وقد جاء مثل هذا النهى فى قوله :

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى ينقصون .

(إنى أراكم بخير) أى إنى أراكم بثروة وسعة فى الرزق تغنيكم عن الدناءة فى بخس حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل مما تنقصون لهم من المبيع فى مكيل أو موزون

وكانوا تجارا مطففين إذا اكتالوا على الناس يستوفون و إذا كالوهم أو وزنوهم ينقصون المكيال والميزان .

إلا أن فى هذا كفرانا لنعمة الله عليكم ، إذ كان يجب عليكم شكرانها بالزيادة على سبيل الصدقة والإحسان .

(و إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) أى و إنى أخشى عليكم يوما يحيط بكم عذابه إذا أنتم أصررتم على شرككم بالله بعبادة غيره ، وكفرتم بنعمه بنقص المكيال والميزان .

وهذا العذاب إما فى الدنيا بعذاب الاستئصال ، و إما فى يوم القيامة .

(و ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أى و ياقوم أتموهما بالعدل بلا زيادة ولا نقصان .

وقد أمرهم بالواجب بعد أن نهاهم عن ضده لتأكيده وللتنبيه إلى كون عدم التعمد للنقص لا يكفى لتحرِّى الحق ، بل يجب معه تحرى الإيفاء بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقص ، وإن كان التيقن من ذلك لايكون إلا بزيادة طفيفة ، وتعمدها فى الكيل والوزن للناس سخاء وفضيلة يمدح فاعلها عليها ، وفي الاكتيال أو الوزن عليهم طمع فهو رذيلة مذمومة .

(ولاتبخسوا الناس أشياءهم) البخس : النقص فى كل الأشياء ، يقال بخسه ماله وبخسه علمه وفضله ، أى لاتظلموا الناس أشياءهم ، وذلك يشمل ما للأفراد وماللجماعات من مكيل وموزون ومعدود ومحدود بحدود حسية وحقوق مادية أومعنوية .

(ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) الإفساد تعطيل يشمل مصالح الدنيا وأمور الدين وأخلاق النفس وصفاتها ، وكل ذلك فاش فى عصرنا أى لاتفسدوا فى الأرض وأنتم تتعمدون الإفساد ، وإنما اشترط فى النهى تعمد الإفساد ، لأن بعض ماهو إفساد فى الظاهر قد يراد به الإصلاح أو دفع أخف الضررين كما يقع فى الحرب من قطع

الأشجار أو فتح سدود الأنهار أو إحراق بعض الغابات ، وكما فعل الخضر عليه السلام للسفينة التى كانت لمساكين يعملون فى البحر ، لأجل منع الملك الظالم الذى وراءهم من أخذها إذا أعجبته .

وهذا نهى عام يشمل غير ماسبق ، كقطع الطرق ، وتهديد الأمن ، وقطع الشجر ، وقتل الحيوان ، ونحو ذلك .

(بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) أى مايبقى لكم بعد إيفاء الكيل والميزان من الربح الحلال خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف ونحوه من الحرام ، إن كنتم مؤمنين به حق الإيمان ، فالإيمان يطهّر النفس من رذيلة الطمع و يحلّيها بفضيلة السخاء والكرم.

(وما أنا عليكم بحفيظ) أى وماأنا بالذى أستطيع أن أحفظكم من القبائح ، و إنما أنا ناصح مبلّغ ، وقد أعذرت إذ أنذرت ، ولم آل جهداً فى ذلك .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

تفسير المفردات

الحليم : ذو الأناة والتروّى الذى لايتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته ، والرشيد: الذى لايأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى قوله أو فعله أو حاله ، يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولٍّ عنه ، وخالفنى عنه إذا ولّى عنه وأنت قاصد له ، وأناب إلى الله : رجع إليه، وجَرَم الذنب أو المال : كسبه ، ورحيم : عظيم الرحمة للمستغفرين ، ودود : كثير اللطف والإحسان إليهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أمر شعيب لقومه بعبادة الله وحده وعدم النقص فى الكيل والميزان ذكر هنا ردهم على كلا الأمرين ، فردوا على الأول بأنهم إنما ساروا على منهج آبائهم وأسلافهم فى التدين والإيمان ، وردوا على الثانى بأنهم أحرار فى أموالهم يتصرفون فيها بما يجلب لهم المصلحة فيها .

ثم أعاد النصح لهم بأنه لايريد لهم إلا الإصلاح، وأنه يخشى أن يصيبهم ماأصاب الأمم فيهم كقوم نوح أوقوم هود وما الأحداث التى اجتاحت قوم لوط ببعيدة عنكم ، فعليكم أن تتوبوا إلى ربكم ، عله أن يرحمكم ، فهو واسع الرحمة ، محب لمن تاب وأناب إليه .

الإيضاح

(قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ؟) أى أصلاتك التى هى من نِتاج الوسوسة وفعل المجانين تأمرك بأن نترك ماسار عليه آباؤنا جيلا إثر جيل من عبادة الأوثان والأصنام ، وإنما جعلوه مأمورا مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله وغيرها من الشرائع ، لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه بل بوحى من ربه ويبلغهم أنه مأمور بذلك ، وإسناد الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات لأنه كان

كثير الصلاة معروفا بذلك حتى إنهم كانوا إذا رأوه يصلّى تغامزوا وتضاحكوا ، فكانت هى من بين الشعائر ضُحْكَةً لهم .

(أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) أى أو أن نترك فعلنا مانشاء فى أموالنا من التطفيف وغيره من التنمية والاستغلال والتصرف فى الكسب بما نستطيع من الحذق والاحتيال والخديعة ، فما ذاك إلا حجر على حريتنا وتحكّم فى إرادتنا وذكائنا .

والخلاصة — إنهم ردوا عليه الناحيتين الدينية والدنيوية بما رأَوْا من شُبَهٍ مَزيفَة ، وحجج آفنة .

ثم أَتْبَعوا ذلك بما يدل على السخرية والهزء به فقالوا :

(إنك لأنت الحليم الرشيد) أى أنت ذو الجهالة والسفاهة فى الرأى ، والغواية فى الفعل بهوس الصلاة ، لكنهم عكسوا القضية تهكما واستهزاء كما يقال للبخيل : لو رآك حاتم لاقتدى بك فى سخائك .

(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) أى قال ياقوم أخبرونى عن شأنى وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى فيما دعوتكم إليه وما أمرتكم به ونهيتكم عنه فكان وحيا منه لارأيا منى .

(ورزقنى منه رزقا حسنا) فى كثرته وفى صفته وقد كان ذلك بالحلال بلا تطفيف مكيال ولا ميزان ولا بخس لحق أحد من الناس ، فما أقوله لكم صادر عن تجربة فى الكسب الطيب ومافيه من خير وبركة ، لاعن آراء نظرية ممن ليست له خبرة — فماذا أقول غير الذى قلت عن وحى من ربى وعن تجربة فى مالى هل يسعنى بعد هذا التقصيرُ فى التبليغ والكتمان لأوامر الله .

(وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه) أى وماأريد بنهيى إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف أن أقصده بعد ماوليتم عنه ، فأستبدّ به دونكم مؤْثِراً لنفسى عليكم ، بل أنا مستمسك به قبلكم .

(إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) أى ماأريد إلا الإصلاح بالنصيحة والموعظة

مااستطعت إلى ذلك سبيلا لاآلو فيها جهدا ، وليس ذلك عن هوى ولا منفعة خاصة ، ولولا ذلك مافعلته .

وفى ذلك إيماء إلى إثبات عقله ورشده وحكمته ، و إبطال لتهكمهم ، واستهزائهم بتلقيبهم إياه (بالحليم الرشيد) .

(وما توفيقى إلا بالله) التوفيق الفوز والفلاح فى كل عمل صالح وسعى حسن ، وحصول ذلك يتوقف على كسب العامل وطلبه من الطريق الموصِّل إليه ، وتيسير الأسباب التى يسهل معها الحصول عليه ، وذلك إنما يكون من الله وحده ، أى وما توفيقى لإصابة الحق والصواب فى كل ماآتى وماأذر إلا بهداية الله تعالى ومعونته .

(عليه توكلت و إليه أنيب) أى عليه توكلت فى أداء ما كلّفنى من تبليغكم ما أرسلت به لاعلى حولى وقوتى ، و إليه أرجع فى كل ماأهمنى فى الدنيا ، وهو الذى يجازينى على أعمالى فى الآخرة .

والخلاصة — إنه لايرجو منهم أجرا ولا يخشى منهم ضَيْراً .

(و ياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ماأصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) أى لاتحملنكم عداوتى و بغضى وفراق الدين الذى أنا عليه على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان و بخس الناس فى المكيال والميزان ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود من العذاب أو قوم صالح من الرجفة .

(وما قوم لوط منكم ببعيد) زمانا ولا مكانا أى إن لم تعتبروا بمن ذكرنا قبلُ لقدم عهد أو بعد مكان فاعتبروا بهؤلاء ، فإنهم بمرْأًى منكم ومَسْمَع .

وقد يكون المعنى — ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساوى فاحذروا أن يحل بكم مثل ماحل بهم من العذاب .

(واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه) أى واطلبوا من ربكم المغفرة مما أنتم عليه من عبادة الأوثان و بخس الناس حقوقهم فى المكيال والميزان ، ثم ارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه .

(إن ربى رحيم ودود) أى إن ربى رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة ، كثير الود والمحبة ، فيحب من يتوب و يرجع إليه .

وفى الآية إرشاد إلى أن الندم على فعل الفساد والظلم بالتوبة واستغفار الرب تعالى من أسباب خير الدنيا وخير الآخرة .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ، وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ؟ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

تفسير المفردات

الفقة : الفهم الدقيق المؤثر فى النفس الباعث على العمل ، والرهط : الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة ، لرجمناك : لقتلناك بالرمى بالحجارة ، بعزيز : أى ذى عزة ومنعة ، واتخذه ظهريا (بالكسر والتشديد) أى جعله نسيًا منسيا لا يذكر كأنه غير موجود ، ومحيط : أى محص ماتعملون ، وعلى مكانتكم : على غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال مكُن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن ، وارتقبوا : أى وانتظروا ، والصيحة : أى صيحة العذاب ، وجاثمين : أى باركين على ركبهم مُكبّين على وجوههم ، وغَنِى بالمكان : أقام به ، و بعدا : أى هلاكا لهم .

المعنى الجملى

بعد أن جادلوه أوّلا بالتى هى أحسن ، وعُمِّيت عليهم العلل ، وضاقت بهم الحيل ، ولم يجدوا للمحاورة ثمرة ـ تحوَّلوا إلى الإهانة والتهديد ، وجعلوا كلامه من الهذيان والتخليط الذى لا يُفهَم معناه ، ولا تُدْرَكُ فحواه ، فقابلهم بالإنذار بقرب الوعيد ، ونزول العذاب الشديد .

الايضاح

(قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) أى ما نعلم حقيقة كثير مما تقول وتخبرنا به ، من بطلان عبادة آلهتنا ، وقبح حرية التصرف فى أموالنا ، ومجىء عذاب يحيط بنا ، وإصابتنا بمثل الأحداث التى أصابت مَنْ قبلنا ، كأنَّ أمرها بيدك ، يصيب بها ربك من يشاء لأجلك .

(وإنا لنراك فينا ضعيفا) لاقوة لك ولاقدرة على شىء من الضر والنفع ، ولا تستطيع أن تمتنع منا إن أردنا أن نبْطِش بك .

(ولولا رهطك لرجمناك) أى ولولا عشيرتك الأقربون لقتلناك بالحجارة حتى تُدْفَن فيها .

(وما أنت علينا بعزيز) أى وما أنت بذى عزة ومنعة تحول بيننا وبين رجمك ، وإنما نُعِزُّ رهطك على قلتهم ؛ لأنهم منا وعلى ديننا الذى نبذْتَه وراء ظهرك وأهنته ، ودعوتنا إلى تركه لبطلانه فى زعمك .

فوبخهم شعيب على سفاهتهم كما حكى سبحانه عنه .

(قال ياقوم أرهطى أعزُّ عليكم من الله) أى قال ياقوم : أرهطى أعز عليكم وأكرم من الله حتى كان امتناعكم عن رجمى بسبب انتسابى إليهم ، وأنهم رهطى ؛ لا بسبب انتسابى إلى الله تعالى الذى أدعوكم إليه بأمره .

(واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى واستخففتم بربكم فجعلتموه خلف ظهوركم ،

لاتأتمرون لأمره ، ولاتخافون عقابه ، ولاتعظمونه حق التعظيم ، وكان القوم يؤمنون بالله ويشركون به سواه . وأكثر الناس اليوم لايراقبون الله فى أقوالهم ولا فى أعمالهم . فيرجوه إذا أحسنوا ، ويخافوه إذا أساءوا ، ويتسابقوا إلى الإحسان ابتغاء مرضاته :

(إن ربى بما تعملون محيط) أى إن ربى محيط علمُه بعملكم فلا يخفى عليه شىء منه وهو مجازيكم عليه، وأما رهطى فلا يستطيعون لكم ضرا ولا نفعا .

ولا يخفى مافى ذلك من التهديد والوعيد .

ثم هددهم مرة أخرى فقال :

(وياقوم اعملوا على مكانتكم) أى وياقوم اعملوا ما استطعتم على منتهى تمكنكم فى قوتكم وعصبيتكم .

وخلاصة ذلك — اثبتوا على ماأنتم عليه من الكفر والمشاقّة وسائر مالا خير فيه، وهذا كلامٌ مِن واثقٍ بقوته بربه ، وضعف قومه على كثرتهم ، وإدلالهم عليه ، وتهديدهم له بقوتهم .

(إنى عامل) على مكانتى على قدر مايؤيدنى الله به من وسائل التأييد والتوفيق.

(سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) أى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله ، أنا أم أنتم ؟ ومن هو كاذب فى قوله ، ومن هو صادق منى ومنكم ـ وهذا تصريح منه بالوعيد بعد التلميح بالأمر بالعمل المستطاع تعجيزاً لهم .

(وارتقبوا إنى معكم رقيب) أى وانتظروا ماأقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ، إنى مرتقب منتظر .

ثم ذكر أنه كان صادقا فى وعيده لهم فحل بهم سوء العذاب فقال :

(ولماجاء أمرنا نجيناشعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) أى ولما جاء أمرنا بعذابهم الذى أنذروه نجينا رسولنا شعيبا والذين آمنوا به فصدّقوه على ما جاءهم به من عند ربهم برحمة خاصة بهم .

(وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى وأخذت أولئك

الظالمين بسبب ظلمهم صيحة العذاب كالتى أخذت ثمود فأصبحوا جميعا باركين على ركبهم مكبين على وجوههم فى ديارهم .

(كأن لم يغنوا فيها) أى كأنهم لم يقيموا فيها متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها .

ثم دعا عليهم بالهلاك فقال :

(ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) أى هلاكا لهم وبُعدا من رحمة الله كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم .

والخلاصة — إن الله أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد فرُجِفت أرضها ، وزلزلت من شدتها ، وخروا ميتين ، وكانت صاعقتها أشد من الصاعقة التى أخذت بنى إسرائيل حين قالوا (أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً) وقد أحياهم الله عقبها، لأن هذه تربية لقوم نبىّ فى حضرته ، وتلك صاعقة كانت عذاب خزى لمشركين ظالمين معاندين أنجى الله نبىّ كل منهما ومؤمنيهما قبلها .

قصة موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

تفسير المفردات

الآيات : هى الآيات التسع المعدودة فى سورة الإسراء والمفصّلة فى سورة الأعراف وغيرها ، والسلطان المبين : هو ما آتاه الله من الحجة البالغة فى محاوراته مع فرعون

وملئه ، والملأ : أشراف القوم وزعماؤهم ، وما أمر فرعون : أى ماشأنه وتصرفه ، برشيد: أى بذى رشد وهدى ، وقَدَم يقْدُم (كنصر ينصر) : تقدم ، فأوردهم النار : أى أدخلهم إياها ، والورد بلوغ الماء فى مورده من نهر وغيره ، والمورود : الماء والمراد به هنا النار ، وأتبعوا : أى وألحقت به لعنة ، والرفد : (بالكسر) : العطاء والعون فيقال رفده وأرفده : أعانه وأعطاه ، والمرفود : المعْطَى .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات قصص موسى مع فرعون وملئه للإعلام بأن عاقبة فرعون وأشراف قومه اللعنة والهلاك ككفار أولئك الأقوام الظالمين وإن كان عذاب الخزى وهو الغرق فى البحر لم يعمّ جميع قومه ، بل لحق من اتبع موسى وسار أثره للأسباب التى سلف ذكرها فى سورة الأعراف .

الايضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه) أى ولقد أرسلنا موسى إلى فرعون وملئه مصحوبا بآيات بينات دالة على توحيد الله ، وفيها السلطان المبين ، والحجة الواضحة على صدق نبوته، وإنما خص الملأ بالذكر وقد أرسل إلى قومه جميعا ، لأنهم أهل الحل والعقد والاستشارة فى دولته ، ويُعْهَد إليهم بتنفيذ مايقرره من الأمور ، فغيرهم يكون تبعا لهم فى كل ما يأتون ويذرون .

(فاتبعوا أمر فرعون) فى كل ماقرره من الكفر بموسى وردّ ما جاءهم به من عند الله ، وتشديد الظلم على بنى إسرائيل بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم إلى نحو أولئك مما جاء فى السور الأخرى مفصلا .

(وما أمر فرعون برشيد) أى وما شأنه وتصرفه بصالح حميد العاقبة ، بل هو محض غىّ وضلال ، وظلم وفساد ، لغروره بنفسه ، وكفرانه بربه ، وطغيانه فى حكمه .

ثم ذكر جزاءه مع قومه فى الآخرة فقال :

(يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) أى يتقدم قومه يوم القيامة ويكونون تبعا له كما كانوا تابعين فى الدنيا إلا من آمن ، فيوردهم جهنم معه : أى يدخلهم إياها .

وقد ورد أن آله يُعْرَضون على النار منذ ماتوا صباحا ومساء من كل يوم كما قال تعالى : « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

(وبئس الورد المورود) أى وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن وارد الماء إنما يرده لتبريد كبده وإطفاء غُلّته من حر الظمأ ، ووارد النار يحترق فيها احتراقا .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى الآية : الورود الدخول وقد ذكر فى أربعة مواضع : فى هود « وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ » وفى مريم « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا » وفى الأنبياء « حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » وفى مريم أيضا « وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً » وكان يقول : والله ليردَنَّ جهنم كلُّ بَرٍّ وفاجر « ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » .

(وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة) أى وألحقت بهم لعنة عظيمة ممن بعدهم من الأمم ، ويوم القيامة أيضا يلعنهم أهل الموقف جميعا فهى تابعة لهم حيثما ساروا ، ودائرة أينما داروا .

والآية بمعنى قوله : « وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » .

وقد سمى الله هذه اللعنات رفدا تهكّما بهم فقال :

(بئس الرفد المرفود) أى بئس العطاء المعْطَى هذه اللعنة التى أُتبعوها فى الدنيا والآخرة .

وفى الآيات من العبرة أن فى البشر فراعنة كثيرين يُغوُون الناس و يستعبدونهم ، فيطيعونهم و يَذِلّون لهم ذل العبيد ، ولا تفيدهم هداية القرآن شيئا . ومنهم من يدّعون الإسلام ولا يفقهون قول الله لرسوله فى آية مبايعة النساء (وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) وقوله صلى الله عليه وسلم « لا طاعة لأحد فى معصية الله إنما الطاعة فى المعروف » .

العبرة بقصص الأمم الظالمة وبما آل إليه أمرها

ذٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلٰكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَىْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص الأمم الماضية والقرون السالفة مع الرسل الذين أرسلوا إليهم ، نبه إلى مافى ذكرها من عظة واعتبار بقوله : (منها قائم وحصيد) فالسامع لها والقارئ يلين قلبه ، وتخضع نفسه ، فيحمله ذلك على النظر والاعتبار بها - إلى مافى إخباره صلى الله عليه وسلم بها من غير مطالعة كتب ولا مدارسة مع معلِّم ، من عظيم الدلالة على نبوته ، إذ أن هذا لايكون إلا بوحى من العلِّى الأعلى أتاه به روح القدس .

الايضاح

(ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) أى ذلك الذى قصصناه عليك بعض أخبار الأمم الماضية ، وأمّ أطوار اجتماعها فى المدائن والقرى من قوم نوح ومن بعدهم ، نقصه

عليك فى هذا القرآن ، لتتلوه على الناس ويتلوه المؤمنون آناء الليل وأطراف النهار إنذارا وتبليغا عنا .

(منها قائم وحصيد) أى من تلك القرى مابقيت آثارها ماثلة كالزرع القائم فى الأرض كقوم صالح ، ومنها ماعفَتْ ودَرَست آثارها كالزرع المحصود الذى لم يبق منه بقية فى الأرض كقرى قوم لوط .

(وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) أى وما كان إهلاكهم بغير جُرْم استحقوا به الهلاك ، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم وإفسادهم فى الأرض وإصرارهم على ذلك حتى لم يبق فيهم استعداد لقبول الحق ، ولو بقوا زمانا مازادوا إلا ظلما وفجورا وفسادا فى الأرض كما قال نوح عليه السلام : « إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّاراً » .

وقد بالغ رسلهم فى وعظهم وإرشادهم فما زادهم ذلك إلا عتوًّا واستكبارا ، وأنذروهم بالنُّذر فما زادهم ذلك إلا إصرارا وعنادا ، ثقة منهم بأن آلهتهم تدفع عنهم كل مخوف ، وتبعد عنهم كل محذور ، جهلا منهم بما كانوا يعملون . ومن ثم قال :

(فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك) أى فما نفعتهم ولادفعت بأس الله عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ويطلبون منها أن تدفع عنهم الضر بنفسها أو بشفاعتها عنده ـ لما جاء عذاب ربك تصديقا لما أنذرهم به رسله .

(ومازادوهم غير تتبيب) يقال تبّبه تتبيبا : أهلكه ، وتبّ فلان وتبت يده : خسر أو هلك ، وتبًّا لفلان : دعاء عليه بالهلاك ، أى ومازادوهم إلا هلاكا وتدميرا ، إذ أنهم باتكالهم عليهم ازدادوا كفرا وإصرارا على الظلم والفساد ، ظنا منهم أنهم ينتقمون لهم من الرسل كما حكى الله تعالى عن بعضهم قوله : « إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » .

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) أى ومثل ذلك الأخذ بالعذاب وعلى نهجه وطريقه ، أخذ ربك أهل القرى وهى متلبِّسة بالظلم ، فذلك عقاب لامفرّ منه ولا مَهْرَب .

وفى هذا إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم لكل قرية ظالمة فى كل زمان ومكان

(إن أخذه أليم شديد) أى إن أخذه وجيع قاسٍ لايُرْجَى منه الخلاص .

روى أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » فليعتبر الظالمون بهذا ، ولايغترّوا بالدين الذى ينتسبون إليه دون أن يعملوا مايرفع عنهم غضب ربهم ونقمته ، فربما كان ذلك إملاء منه تعالى واستدراجا لهم .

العظة بعذاب الآخرة

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ

مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر العبرة فى إهلاك الأمم الظالمة فى الدنيا ـ ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة للأشقياء والسعداء ، فالأولون يصْلَوْن النار التى لهم فيها شهيق وزفير ، والآخرون يمتعون بالجنة التى فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وهم فيها خالدون .

الايضاح

(إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) أى إن فيما قصه الله من إهلاك أولئك الأمم و بيان سنته فى عاقبة الظالمين ، لحجة بيّنة وعبرة ظاهرة لمن يخاف عذاب الآخرة يعتبر بها فيتقى الظلم فى الدنيا على سائر ضرو به ، إذ يعلم أن مَنَ عذّب الظالمين فى الدنيا قادر أن يعذبهم فى الآخرة ، وأن ماحاق بهم فى دار الفناء ، أُنموذَج لما يكون لهم فى دار البقاء .

والماديون فى هذا العصر وفى عصور سابقة كما حكاه البيضاوى عن بعض أهل عصره يقولون : إن الطوفان والصاعقة وخسف الأرض كل أولئك قد حدث بأسباب طبيعية لا بإرادة الله واختياره لتربية الأمم ـ ويكفى فى الرد عليهم أن يقال : إن حدوث هذه الأشياء وغيرها بالأسباب الموافقة لسنن الله فى نظام العالم هو المراد بالقضاء والقدر فى القرآن الكريم ، والله تعالى أحدث هذه الأسباب فى أوقات معينة بحكمته لعقاب تلك الأمم بها ، ولم تكن من قبيل المصادفات .

والدليل على ذلك أن أولئك الرسل أنذروا أقوامهم بحدوثها قبل أن لم تكن ، ومنهم من ذكر وقتها على سبيل التعيين والتحديد ، وهكذا يفعل الله بالظالمين فى كل

زمان و إن لم يكن فيهم من ينذرهم بوقوع ما يحل بهم اكتفاء بإنذار القرآن كما قال : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

(ذلك يوم مجموع له الناس) أى ذلك اليوم الذى يقع فيه عذاب الآخرة يوم يُجْمَع له الناس كلهم ليحاسبوا على ما عملوا ثم يوفَّوْا جزاءهم بالعدل والقسطاس .

(وذلك يوم مشهود) أى وذلك يوم يشهده الخلائق جميعا من الإنس والجن والملائكة وغيرهم .

(وما نؤخره إلا لأجل معدود) أى وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء مدة معلومة فى علمنا لا تزيد ولا تنقص ، وهى انتهاء مدة الدنيا ، وكل شىء معدود محدود فهو قريب ، ولم يطلع الله أحدا من خلقه على معرفة ذلك اليوم .

(يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) أى فى ذلك الحين الذى يجىء فيه اليوم المعين لا تتكلم نفس من الأنفس الناطقة إلا بإذنه تعالى ، إذ لا يملك أحد فيه قولا ولا فعلا إلا بإذنه كما قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً » وقال : « هٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » وقال : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » .

(فمنهم شقى وسعيد) أى فمن يُجْمَع فى ذلك اليوم ؛ شقى مستحق للعذاب الأليم الذى أُوعِد به الكافرون ، وسعيد مستحق لما وعد به المتقون ، من الثواب والنعيم الدائم. والأطفال والمجانين لا يدخلون فى هذا التقسيم لعدم التكليف — ويدخل فيه من استوت حسناتهم وسيئاتهم من المؤمنين ، ومن تغلب سيئاتهم و يعاقبون عليها إلى حين ثم يدخلون الجنة ، لأنهم من فريق السعداء باعتبار العاقبة . فالسعداء درجات ، والأشقياء دركات .

روى الترمذى وأبو يَعْلَى وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزلت «فمنهم شقى وسعيد» قلت : يارسول الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فُرغ منه أو على شىء لم يُفرغ منه ؟ قال : « بل على شىء قد فرغ منه وجرت به الأقلام ياعمر ، ولكن كلٌّ ميسر لما خلق له » وروى عن على كرم الله وجهه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان فى جنازة فأخذ عودا فجعل ينكت فى الأرض فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وقرأ : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » والمراد أن الله يعلم الغيب وأنه يعلم المستقبل كله بجميع أجزائه وأطرافه ، ومنه عمل العاملين ومايترتب على كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده فى كتابه المنزل وكتابته للمقادير ، والنبى صلى الله عليه وسلم علمنا أن الجزاء بالعمل ، وأن كل إنسان ميسر له ومسهل عليه ماخلقه الله لأجله من سعادة الجنة ، أو شقاوة النار ، وأن ماوهبه من الاستعداد والعزيمة يكون له تأثير فى تربية النفس وتوجيهها إلى ماتعتقد أن فيه سعادتها وخيرها .

ثم فصل جزاء الفريقين فقال :

(فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق) الزفير تنفس الصُّعَدَاء من الهم والكرب إذا امتد واشتد وسُمِع صوته ، والشهيق النشيج فى البكاء إذا اشتد تردده فى الصدر وارتفع به الصوت ، أى فأما الذين شقوا فى الدنيا بما كانوا يعملون من أعمال الأشقياء لفساد عقيدتهم الموروثة وسوء القدوة فى العمل حتى أحاطت بهم خطيئاتهم وانطفأ نور الفطرة من أنفسهم ، فلهم فى النار التى هى مستقرهم ومثواهم زفيرٌ وشهيق من حرج صدورهم وضيق أنفاسهم وشدة كروبهم .

(خالدين فيها مادامت السموات والأرض) أى ماكثين فيها مكث خلود وبقاء مدة دوام السموات التى تظلهم والأرض التى تقلّهم ، والمراد التأبيد ونفى الانقطاع على منهج قولهم : لاأفعله مابدا كواكب ، وما أضاء الفجر ، وماتغنّت حمامة ، والنصوص متظاهرة على تأبيد قرارهم فيها .

وسماء كل من أهل الجنة والنار ماهو فوقهم ، وأرضهم ماهم مستقرون عليه وهو تحتهم ، كما قال تعالى « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ » وقال ابن عباس والسُّدِّى والحسن : لـكلّ أرض وسماء .

(إلا ماشاء ربك) أى إن هذا الخلود دائم إلا ماشاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر ، إذ أنه إنما وضع بمشيئته وسيبقى كذلك ، ويراد بمثل هذا فى سياق الأحكام القطعية الدلالة على تقييد تأبيدها بمشيئته تعالى فقط ، لالإفادة عدم عمومها كما فى قوله : «قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إلا مَا شَاءَ اللهُ » أى لاأملك شيئا من ذلك بقدرتى إلا ماشاء الله أن يملـكنيه منه بتسخير أسبابه وتوفيقه ، ونحو ذلك قوله : « سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ » أى إنه تعالى ضمن لنبيه حفظ القرآن الذى يقرئه إياه وعصمه ألا ينسى منه شيئا كما هو مقتضى الضعف البشرى إلا أن يكون بمشيئة الله فهو وحده القادر على ذلك .

(إن ربك فعال لما يريد) فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ؛ ومشيئته تعالى إنما تتعلق بما سبق به علمه واقتضته حكمته ، وما كان كذلك لم يكن إخلافا لشىء من وعده ولا من وعيده كخلود أهل النار فيها .

(وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلاماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) المجذوذ: المقطوع ، من جذّه إذا قطعه أو كسره ، وهو كقوله : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى إن هذا الجزاء هبة منه و إحسان دائم غير مقطوع ، وقد كثر وعد الله تعالى للمؤمنين المحسنين بأنه يزيدهم من فضله ، و بأنه يضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها ، و بأكثر من ذلك إلى سبعمائه ضعف ، و بأنه يجزيهم بالحسنى ، و بأحسن مما عملوا ـ ولم يوعد بزيادة جزاء الـكافرين والمجرمين على مايستحقون ، بل أوعدهم بأنه يجزيهم بما عملوا ، و بأن السيئة بمثلها وهم لا يُظلَمون ، و بأنه لايظلم أحدا ، وهذا الجزاء وهو الخلود فى النار أثر طبيعى لتدسية النفس بالـكفر والظلم والفساد.

و بعد أن شرح سبحانه أقاصيص عبدة الأوثان ، ثم أتبعه بأحوال الأشقياء والسعداء ، أنذر أعداء النبى صلى الله عليه وسلم والمشركين من قومه بما حل بالأمم المهلكة من العذاب فقال :

(فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء) أى إذا كان أمر الأمم المشركة الظالمة فى الدنيا ثم فى الآخرة كما قصصناه عليك ، فلا تكن فى أدنى ريب مما يعبد قومك هؤلاء فى عاقبته بمقتضى تلك السنن التى لاتبديل لها .

وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لقومه كما لايخفى .

ثم بين حالهم فى عبادتهم وجزاءهم عليها فقال :

(مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) أى إنهم أشبهوا آباءهم فى الجهل والتقليد فهم مقلدون لهم ، و إنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم فى الدنيا وافيا تامّا لاينقص منه شىء كما وفينا آباءهم الأولين من قبل ؛ فأعمال الخير التى يعملونها فى الدنيا كبرّ الوالدين وصلة الأرحام و إغاثة الملهوف يوفون جزاءهم عليها بسعة الرزق وكشف الضر جزاء تاما وافيا ولا يجزون عليها فى الآخرة ، ومثل هذا الجزاء متاع عاجل لايلبث أن يزول .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكّر مشركى مكة بأقوام غلب عليهم الكفر والجحود ولم يؤمن إلا القليل منهم ، فوفّاهم جزاء أعمالهم فى الدنيا وسيوفيهم جزاءهم فى الآخرة ـ ذكّرهم فى هاتين

الآيتين بقوم موسى الذين آتاهم الكتاب فاختلفوا فيه ، وأن مثل الذين يختلفون من أمته فى الكتاب مثل هؤلاء .

الايضاح

(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) أى فاختلف فى الكتاب وكونه من عند الله فآمن به قوم وكفر به آخرون ، فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن كقولهم « لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » وزعمهم أن القرآن مفترى .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) الكلمة هى كلمة القضاء بتأخير العذاب إلى الأجل المسمى بحسب الحكمة الداعية إلى ذلك ، أى ولولا ماتقدم من حكم الله بتأخير إهلاك البغاة المثيرين للاختلاف فيه بأهوائهم ، و إبقاء المعتصمين بالوحدة والاتفاق على هدايته ، لأهلكهم ، كما أهلك الذين ردوا دعوة الرسل جحودا وعنادا .

(و إنهم لفى شك منه مريب) أى و إن المكذبين به منهم لفى شك موقع فى الريب والاضطراب ، فلا يدرون أحق هو أم باطل .

وجاء فى معنى الآية قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ» والذين أورثوا الآيات بعد من تقدم ذكرهم من الأنبياء هم اليهود والنصارى وقد عرض لهم من الشك والريب فى كتبهم مالم يكن فى عهد

سلفهم ، إذ أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام قد فُقِدت فى إحراق البابليين لهيكل سليمان ، والنصارى كانوا أشد اختلافا فى كتبهم ومذاهبهم .

(و إن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير) أى و إن كل أولئك المختلفين الذين قصصنا عليك قصصهم ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم إن خيرا فخير و إن شرا فشر ، إذ لايخفى عليه شىء منها .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣)

المعنى الجملى

بعد أن بين أمر المختلفين فى التوحيد والنبوة ، وأطنب فى وعدهم ووعيدهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن تاب معه بالاستقامة وهى كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل والأخلاق الفاضلة .

الإيضاح

(فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) أى فالزم الصراط المستقيم الذى لاعوج فيه واثبت عليه ، وكذلك فليستقم من تاب من الشرك وآمن معك ، ولاتنحرفوا عما رسم لكم بتجاوز حدوده غُلوًّا فى الدين ، فإن الإفراط فيه كالتفريط كلاهما زَيْغ عن الصراط المستقيم .

وفى هذا إيماء إلى وجوب اتباع النصوص فى الأمور الدينية من عقائد وعبادات واجتناب الرأى و بطلان التقليد فيها .

و إيضاح هذا — إن تحكيم العقل البشرى فى الخوض فى ذات الله وصفاته وفيما دون ذلك من عالم الغيب كالملائكة والعرش والجنة والنار — تجاوز لحدوده ، فإن أكبر العلماء والفلاسفة عقولا عجزوا إلى اليوم عن معرفة كنه أنفسهم وأنفس مادونهم من المخلوقات صغيرها وكبيرها حتى الحشرات منها كالنحل والنمل ، فأنى لهم أن يعرفوا كنه ذات الله وصفاته أو معرفة حقيقة ملائكته وغيرهم من جند الله ؟ .

ولما خرج متأخر والأمة عن هدى سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زاغوا فكانوا : « مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » فسقط بعضهم فى خيال التشبيه ، و بعضهم فى خيال التعطيل .

ولو كانوا قد نهجوا نهج السابقين لتجنبوا أسباب الخلاف والتفرق فى الدين الذى أوعد الله أهله بالعذاب العظيم وبرأ رسوله منهم .

والواجب التزام كتاب الله ومافسرته به سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من العبادات العملية بدون تحكم بالرأى والقياس ، والمعاملات على النحو الذى بينه الكتاب والسنة على السنن القويم دون تأويل ولاتخريج لهما على غير مايفهم من ظاهرهما .

أما الاختلاف فيما عدا ذلك من أمور القضاء والسياسة وأمور المعاش من زراعات وتجارات فهو أمر طبيعى لايمكن الغنى عنه ، فلولاه لما تقدمت شئون الحياة ، ولما حصل التنافس لدى أرباب المهن والصناعات ، ولما جدّ كل يوم بِدْع جديد (موضه) ولكان الناس دائما على الفطرة الأولى ، وأنى لعقل الإنسان أن يستمر على حال واحدة وقد أوتى الخلافة فى الأرض وحسن استعمارها ، وبهذا وحده فَضَل الملائكة ولله فى خلقه شئون .

وقد بين سبحانه لنا المخرج إذا حدث بيننا الخلاف فى الدين فقال : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ » الآية وقد فسر ذلك النبى صلى الله عليه

وسلم بقوله لمعاذ بن جبل حين ولاه القضاء فى اليمين « بم تقضى ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسوله . قال فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيى ـ فأقرّه على ذلك ».

وهذا هو الاستقامة فى الدين التى بها يرقى المرء إلى أعلى عليين ، وقد حثّ الله رسوله عليها فى هذه الآية وحث موسى وهارون عليها فقال : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » .

ومدح من اتصفوا بها ووعدهم بالخير والفلاح فى الآخرة فقال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » .

وروى مسلم عن سفيان الثقفى قال : « قلت يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : (قل آمنت بالله ثم استقم) » .

(إنه بما تعملون بصير) أى إنه تعالى بصير بعملكم ومحيط به فيجزيكم به ، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم عاملون بخلاف أمره .

ونظير هذه الآية قوله « فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » .

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) الركون إلى الشىء : الاعتماد عليه ، وركن الشىء : جانبه الأقوى ، وما تتقوى به من ملك وجند وغيره ومنه قوله تعالى « فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ » والمراد من الظالمين هنا أعداء المؤمنين الذين يؤذونهم و يفتنونهم عن دينهم من المشركين ليردّوهم عنه ، فهم بمعنى الذين كفروا فى الآيات الكثيرة ، وتمسكم النار ، أى تصيبكم ، أى لا تستندوا إلى الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من غيرهم فتجعلوهم ركنا لكم

تعتمدون عليه فتقروهم على ظلمهم وتوالوهم فى شئونكم الحربية وأعمالكم الدينية ، فإن الظالمين بعضهم أولياء بعض .

وخلاصة ذلك — لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم رضيتم عن أعمالهم ، فإن فعلتم ذلك أصابتكم النار التى هى جزاء الظالمين بسبب ركونكم إليهم والاعتزاز بهم والاعتماد عليهم ، والركونُ إلى الظلم وأهله ظلم « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وليس لكم فى هذه الحال التى تركنون فيها إليهم غير الله وليًّا ينقذكم ويخلصكم من عذابه ، ثم لا تنصرون : أى لا ينصركم الله لأن الذين يركنون إلى الظالمين يكونون منهم وهو لا ينصر الظالمين كما قال « وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » بل تكون عاقبتكم الحرمان مما وعد الله رسله ومن ينصره من المؤمنين .

والخلاصة — إن الركون إلى الظالمين المنهى عنه هو الاعتماد على أعداء المؤمنين الذين يفتنونهم ويصدونهم عن دينهم ، ويؤيده ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه فسر الظلم هنا بالشرك . والذين ظلموا بالمشركين ، وقيل إنها عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومن ابتلى بمخالطة الظلمة فليزن أقوالهم وأفعالهم بميزان الشرع ، فإن زاغوا عن ذلك فعلى أنفسهم قد جَنَوْا ، وطاعتهم واجبة على كل من دخل تحت أمرهم ونهيهم فى كل ما يأمرون به مالم يكن فى معصية الله ، فمن أمروه أن يدخل فى شىء من الأعمال التى وكلها إليهم كالمناصب الدينية ونحوها فليدخل فيه إذا وثق من نفسه القدرة على القيام به ، إلى أنه يجب الأخذ على أيدى الظالمين عامة وعلى أئمة الجور والأمراء خاصة؛ ويجب تغيير المنكر أولا باليد فإن لم يستطع ذلك فباللسان ، وإلا فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى بكر أنه قام فحمد الله

وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ـ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم حتى أتى على آخر الآية ، ألا و إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا و إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوُا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

تفسير المفردات

طرف الشيء : الطائفة منه والنهاية ، فطرفا النهار : الغدو والعشى . وروى عن الحسن وقتادة والضحاك أنهما صلاة الصبح والعصر ، والزلف واحدها زلفة وهى الطائفة من أول الليل لقربها من النهار ، وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وذكرى : عبرة وعظة ، وللذاكرين : أى المعتبرين المتعظين .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بالاستقامة وعدم تجاوز ما رسمه الدين ، وعدم الركون إلى أولى الظلم ـ أمره هنا بأفضل العبادات وأجلّ الفضائل التى يستعان بها على ما سلف .

الايضاح

(وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) أى أدّها على الوجه القويم وأدمها فى طرفى النهار من كل يوم ، وفى زلف من الليل ، ونظير هذه الآية قوله فى سورة

طه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى » والتسبيح عام يشمل الصلاة وغيرها .

والآية الصريحة فى أوقات الصلوات الخمس قوله تعالى « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » فالمساء مابين الظهر والمغرب وهو صلاة العصر ،وصلاة المغرب العشاء الأولى، وصلاة العتمة العشاء الآخرة التى يزول عندها الشفق وهو آخر أثر لنور النهار .

وخصت الصلاة بالذكر لأنها أس العبادات المغذّية للإيمان والمعينة على سائر الأعمال .

ثم بين فائدة الأمر السابق وحكمته فقال :

(إن الحسنات يذهبن السيئات) أى إن الأعمال الحسنة تكفر السيئات وتُذْهِب المؤاخذة عنها ، لما فيها من تزكية النفس و إصلاحها ، فتمحو منها تأثير الأعمال السيئة فى النفس و إفسادها لها ، والمراد بالحسنات مايعم الأعمال الصالحة جميعا حتى ما كان منها تركاً لسيئة كما قال تعالى « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً » وجاء فى الحديث الشريف « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » والمراد بالسيئات الصغائر لأن الكبائر لا يكفرها إلا التوبة بدليل مارواه مسلم « الصلوات الخمس كفارة لما بينهما مااجْتُنِبَتِ الكبائر » .

(ذلك ذكرى للذاكرين) أى إن فيما ذكر من الوصايا السابقة من الاستقامة والنهى عن الطغيان والركون إلى الذين ظلموا و إقامة الصلاة فى تلك الأوقات ، لعبرة للمتعظين الذين يراقبون الله ولا ينسونه ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

(واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين) أى ووطّن نفسك على احتمال المشقة فى سبيل ماأُمِرْت به ، وما نُهِيتَ عنه فى هذه الوصايا وفى غيرها ، فإن الله لايضيع أجر من أحسن عملا بل يوفيه ثواب عمله من غير بخس له .

وفى الآية إيماء إلى أن الصبر من باب الإحسان .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

تفسير المفردات

لولا : كلمة تفيد التحضيض والحث على الفعل ، والقرون واحدهم قرن : وهو الجيل من الناس ، قيل هو ثمانون سنة ، وقيل سبعون ، وشاع تقديره بمائة سنة ، والبقية : مايبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره ، واستعمل كثيرا فى الأنفع والأصلح ، لأن العادة قد جرت بأن الناس ينفقون أردأ ماعندهم ويستبقون الأجود ، ويقال أترفته النعمة أى أبطرته وأفسدته ، وكلمة ربك : أى قضاؤه وأمره .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عاقبة الأمم المكذبة لرسلها فى الدنيا والآخرة و إنذار قومه صلى الله عليه وسلم بهم ، و بيّن مايجب عليه وعلى من آمن به وتاب معه من الاستقامة والصلاح واجتناب أهل الظلم والفساد .

ذكر هنا بيان السنن العامة فى إهلاك الأمم الذين قص الله قصصهم وأمثالهم ممن عصوا رسل ربهم بعد أن أنذروهم عقابه ، ووعدوهم إذا أطاعوهم ثوابه .

الايضاح

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض) أى فهلا وُجِد من أولئك الأقوام الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم فى الأرض جماعة أولو عقل ورأى وصلاح ينهونهم عن الفساد فى الأرض باتباع الهوى والشهوات التى تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم ، فيحولون بينهم و بين الفساد ، ومن سنة الله ألا يهلك قوما إلا إذا عمّ الفساد والظلم أكثرهم .

(إلا قليلا ممن أنجينا منهم) أى ولكن كان هناك قليل من الذين أنجيناهم مع رسلهم منبوذين لا يقبل نهيهم وأمرهم مهددين مع رسلهم بالإبعاد والأذى .

(واتبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه وكانوا مجرمين) أى واتبع الظالمون وهم الأكثرون مارزقناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا واستكبروا وصدوا عن سبيل الله ، وكانوا ذوى جرائم بما ولده الترف والنعيم ، فكان هو المسخِّر لعقولهم ، و بذا رجّحوا ما أنَوْا على اتباع الرسل .

وخلاصة ذلك — إن العقول السليمة كافية للفهم مافى دعوة الرسل من الخير والصلاح لو لم يمنع استعمال هدايتها الافتتان بالترف والنعيم بدلا من القصد والاعتدال فيه وشكر المنعم عليه ، وقد هدت التجارب إلى أن الترف هو الباعث على الفسوق والعصيان والظلم والإجرام ، و يظهر ذلك بديئا فى الرؤساء والسادة ، ومنهم ينتقل إلى الدهماء والعامة فيكون ذلك سببا فى الهلاك بالاستئصال ، أو فى فقد العزة والاستقلال ، وتلك هى سنة الله فى خلقه كما قال : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » .

ثم بين سبحانه مايحول بين الأمم و إهلاكها فقال :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) الظلم هو الشرك أى إنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ماداموا مصلحين فى أعمالهم الاجتماعية والعمرانية والمدنية ، فلا يبخسون الناس حقوقهم كما فعل قوم شعيب ، ولا يبطشون بالناس

بطش الجبارين كقوم هود، ولا يَذِلّون لمتكبر جبار كقوم فرعون ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر كقوم لوط ، بل لابد أن يضموا إلى الشرك الإفساد فى الأعمال والأحكام ، ويفعلوا الظلم المدمِّر للعمران ، ومن ثم قالوا : الأمم تبقى مع الكفر ولاتبقى مع الظلم والجور ، ويؤيد هذا ماأخرجه الطبرانى والديلمى وابن مردويه عن جرير بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عن تفسير هذه الآية فقال : « وأهلها يُنصِف بعضهم بعضا» .

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أى ولو شاء ربك أيها الرسول الكريم، الشديد الحرص على إيمان قومك ، الحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابةدعوتك واتباع هديك ـ لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا اختيار لهم فيما يفعلون ، فكانوا فى حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل ، وفى حياتهم الروحية أشبه بالملائكه مفطورين على طاعة الله واعتقاد الحق وعدم الميل إلى الزيغ والجور ، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لاملهَمين ، وعاملين بالاختيار لامجبورين ولامضطرين وجعلهم متفاوتين فى الاستعداد وكسب العلم ، وكانوا فى أطوارهم الأولى لا اختلاف بينهم ، ثم لما كثرت وتنوعت حاجاتهم وكثرت مطالبهم ظهر فيهم الاستعداد للاختلاف كما قال تعالى : «وَمَا كَانَ النَّاسُ إلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا » .

(ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك) أى ولا يزالون مختلفين فى شئونهم الدنيوية والدينية بحسب استعدادهم الفطرى ، إلامن رحم الله منهم فإنهم يتفقون على حكم كتابه فيهم وهو الذى عليه مدار جمع كلمة الأمة ووحدتها .

(ولذلك خلقهم) أى ولمشيئته تعالى فيهم الاختلاف والتفرق فى علومهم ومعارفهم وآرائهم ، ومايتبع ذلك من الإرادة والاختيار فى الأعمال ـ خلقهم ، وبهذا كانوا خلفاء فى الأرض ، ومن ذلك اختلافهم فى الدين والإيمان والطاعة والعصيان ، وبذا كانوا مظهراً لأسرار خلقه الروحية والجسدية أو المادية والمعنوية ، وقال ابن عباس

خلقهم فريقين فريقا يرحم فلا يختلف ، وفريقا لا يُرحم فيختلف ، فذلك قوله : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

والخلاصة — إن الناس فريقان : فريق اتفقوا فى الدين فجعلوا كتاب الله حكما بينهم فيما اختلفوا فيه فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة فرحمهم الله ووقاهم شر الاختلاف فى الدنيا وعذاب الآخرة ، وفريق اختلفوا فى الدين كما اختلفوا فى منافع الدنيا فكان بأسهم بينهم شديدا فذاقوا عقاب الاختلاف فى الدنيا وأعقبه جزاؤهم فى الآخرة ، فحُرِموا من رحمة الله بظلمهم لأنفسهم ، لا بظلم منه تعالى لهم .

(وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى قد سبق فى قضائه وقدره وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأن الجنة والنار لابد أن يُملآ من عالمى الجن والإنس الذين لا يهتدون بما أرسل به رسله وبما أنزل عليهم من كتبه لهداية المكلفين والحكم بين المختلفين .

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

تفسير المفردات

القص : تتبع أثر الشىء للإحاطة به كما قال تعالى : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » والنبأ : الخبر الهام ، ونثبت : أى نقوى ونجعل فؤادك راسخا كالجبل ، على مكانتكم : أى على تمكنكم واستطاعتكم .

المعنى الجملى

بعد أن قص عز وجل قصص أشهر الأنبياء مع أممهم الماضين ـ بين هنا مالذلك من فائدة لرسوله وللمؤمنين وهى تثبيت الفؤاد والعظة والاعتبار ، ثم أمر رسوله بالعبادة والتوكل عليه وعدم المبالاة بعداوة المشركين والكيد له .

الإيضاح

(وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل) أى وكل نبأ من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وماجرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه وخذل أعداءه الكافرين ، نقصّه عليك على وجهه لفائدتين :

(١) (مانثبت به فؤادك) أى مابه يقوى فؤادك ويكون ثابتا كالجبل لتقوم بأعباء الرسالة ونشر الدعوة ، لما لَك من الأسوة بإخوانك المرسلين .

(٢) (وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) أى وإن فى هذه الأنباء بيان الحق الذى دعا إليه الرسل وهو اعتقاد أنه تعالى واحد مع إخلاص العبادة له وحده والتوبة إليه وترك الفواحش ماظهر منها ومابطن ، وفيها موعظة وذكرى للذين يتعظون بما حلّ بأولئك الأمم من عقاب ، وبيان أن ذلك إنما نالهم بسبب الظلم والفساد .

(وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم) أى وقل للكافرين الذين لايؤمنون فلا يتعظون : اعملوا على مافى مكنتكم وعلى قدر ماتستطيعون من مقاومة الدعوة و إيذاء الداعى والمستجيبين له .

وفى هذا تهديد ووعيد لهم بما يلْقَوْنه من العذاب جزاء ما كسبت أيديهم .

(إنا عاملون) على مكانتنا وعلى قدر مانستطيع من الثبات على الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته .

(وانتظروا إنا منتظرون) أى وانتظروا بنا ماتتمنَّوْنه من انتهاء أمرنا إما بموت أو غيره مما تحدّثون به أنفسكم كما حكى الله عنهم فى قوله : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » إنامنتظرون أن ينزل بكم مثل مانزل بأمثالكم من عقابه تعالى بعذاب من عنده أو بأيدى المؤمنين ، وأن يكفل لنا النصر والغلبة وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم ، وقد أنجز وعده ونصر رسوله وأيده ، ونظير الآية قوله تعالى : « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

(ولله غيب السموات والأرض) أى إنه سبحانه يعلم كل ماهو غائب عن علمك أيها الرسول وعن علمهم ، مما هو فى السموات والأرض ، وهو المالك المتصرف فيه ، وهو العالم بكل ماسيقع فيهما والعالم بوقته الذى يقع فيه .

(وإليه يرجع الأمر كله) فأمرك وأمرهم لامحالة راجع إليه ، وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن .

(فاعبده وتوكل عليه) أى وإذا كان أمر كل شىء يرجع إليه فاعبده بإخلاص الدين له وحده ، وادع إلى طاعته واتباع أمره بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتوكل عليه فيما لايدخل فى مُكْنَتِك واستطاعتك مما ليس لك سبيل إلى الحصول عليه ، إذلا يدخل تحت كسبك ولاتناله يدك . والتوكل لايجدى نفعا بغير العبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة ، وبدون ذلك يكون من التمنى الكاذب ، والعبادة لاتكمل إلا بالتوكل إذ به يكمل التوحيد والإخلاص له تعالى .

روى أحمد والترمذى وابن ماجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الكيِّس من دان نفسه وعمِل لما بعد الموت ، والعاجز من أتْبَع نفسَه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

وخلاصة ذلك — امتثل ما أُمِرْت به وداوم على التبليغ والدعوة وتوكل عليه فى سائر أمورك ولاتبال بالذين لايؤمنون ولا يضيق صدرك بهم .

(وما ربك بغافل عما تعملون) أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت أيها النبى ومن اتبعك من المؤمنين من عبادته والتوكل عليه والصبر على أذى المشركين فيوفيكم جزاءكم فى الدنيا والآخرة ، وعما يعمل المشركون من الكيد لكم مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا وسيجزيهم على أعمالهم يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأظهر دينه على الدين كله .

ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، وصل ربنا على خير خلقك محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

بيان إجمال للمقاصد الدينية التي حوتها هذه السورة

قد اشتملت هذه السورة على مااشتملت عليه سابقتها من أصول الدين ومبادئه العامة التى لايكون المؤمن مؤمنا حقا إلا إذا سلك سبيلها ونهج نهجها ، ومن ذلك :

(١) التوحيد وهو ضربان :

(ا) توحيد الألوهية ـ وهو أول مادعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ودعا إليه كل رسول قبله ، وهو عبادته تعالى وحده وعدم عبادة أحد معه كما قال : « أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ » فعبادة غيره من الأصنام كحجر وشجر وكوكب أو بشر ولىّ أو نبى أو شيطان أو ملَك إذا توجه العبد إليها توجها تعبديا ابتغاء النفع أو كشف الضر فى غير الأسباب التى سخرها الله لجميع الناس ـ كل ذلك كفر لافرق بينه و بين عبادة الأصنام أو الأوثان إذ جميع ماعدا الله فهو عبد وملك له لايَتَوَجَّهُ بالعبادة إليه .

(ب) توحيد الربوبية ـ أى اعتقاد أن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنته وتسخيره الأسباب لمن شاء بما شاء ، وكان أكثر المشركين من العرب ومن قبلهم يؤمنون بأن الرب الخالق المدبر واحد ، ولكن يقولون بتعدد الآلهة التى يُتَقَرَّب بها إليه توسلا وطلبا للشفاعة عنده .

(٢) إثبات رسالته صلى الله عليه وسلم بالقرآن بتحديهم بالإتيان بعشر سور مثله

مفتريات ودعوة من استطاعوا من دون الله لمظاهرتهم وإعانتهم على الإتيان بها إن كانوا صادقين ، وقوله بعد ذلك : « فإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبوا لَكُمْ فاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ » وما جاء فى قوله : «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » .

(٣) جاءت آيات البعث والجزاء فى القرآن لدعوة المشركين إلى الإيمان والاستدلال بها على قدرة الخالق ، ولتذكير المؤمنين به للترغيب والترهيب والموعظة والجزاء كما جاء فى قوله : « إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » وقوله : « وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ » .

(٤) إهلاك الأمم بالظلم كما جاء فى قوله لخاتم رسله : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ » وقوله : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَىْءٍ » .

(٥) سنته تعالى فى ضلال الناس وغوايتهم - بأن يكونا بارتكاب أسبابهما من الأعمال الاختيارية والإصرار عليها إلى أن تتمكن من صاحبها وتحيط به خطيئته حتى يفقد الاستعداد للهدى والرشاد .

(٦) من طباع البشر العجل والاستعجال لما يَطْلب من النفع والخير وما يُنْذَرُ به من الشر كما قال : « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » .

(٧) سنته تعالى فى تكوين الخلق وأنه كان أطوارا فى أزمنة مختلفة بنظام محكم ولم يكن شىء منه فجائيا بلا تقدير ولا ترتيب كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » فكلمة الخلق معناها التقدير المحكم الذى تكون فيه الأشياء على مقادير متناسبة ثم أُريد بها الإيجاد التقديرى ؛ فالسموات السبع

المرئية للناظرين والأجرام السماوية قائمة بسنن دقيقة النظام ، وما فيها من البسائط والمركّبات الغازية والسائلة والجامدة كذلك ، والكون فى جملته قائم بسنة عامة فى ربط بعضه ببعض وحفظ نظامه ، بأن يبنى بعضه على بعض وهو مايسميه العلماء الجاذبية العامة والجاذبية الخاصة .

(٨) إن الطغيان والركون إلى الظالمين من أمهات الرذائل كما قال : « وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » .

(٩) الاختلاف فى طبائع البشر ، فيه فوائد ومنافع علمية وعملية لاتظهر مزاياه بدونها ، وفيه مضار وشرور أكبرها التفرق والتعادى به ، وقد شرع الله لهم الدين لتكميل فطرتهم والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتابه الذى لامجال فيه للاختلاف ، فاستحق الذين يحكّمونه فيما يتنازعون فيه رحمته وثوابه ، والذين يختلفون فيه سخطه وعقابه .

(١٠) اتباع الإترف وما فيه من الفساد والإجرام ـ ذلك أن مثار الظلم والإجرام الموجب لهلاك الأمم هو اتباع أكثرها لما أُتْرِفوا فيه من أسباب النعيم والشهوات واللذات ، والمترفون هم مفسدو الأمم ومهلكوها .

وقد علم هذا المهتدون الأولون بالقرآن من الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين فكانوا مثلا صالحا فى الاعتدال فى المعيشة أوتغليب جانب الخشونة والشدة على الإترف والنعمة ففتحوا الأمصار وأقاموا دولة عز على التاريخ أن يقيم مثلها باتباع هدى القرآن و بيان السنة له و بذلك خرجوا من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان ، ثم أضاعها مَن خلف من بعدهم من متبعِى الإترف ، وكيف ضلُّوا بعد أن استفادوا الفنون والعلوم والملك والسلطان ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(١١) إقامة الصلاة فى أوقاتها من الليل والنهار ، لأن الحسنات يذهبن السيئات ، وأعظم الحسنات الروحية الصلاة لما فيها من تطهير النفس وتزكية الروح .

(١٢) النهى عن الفساد فى الأرض ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما سياج الدين والأخلاق والآداب .

(١٣) سننه تعالى فى اختبار البشر لإحسان أعمالهم كما قال : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » .

(١٤) أول أتباع الرسل والمصلحين هم الفقراء كما حكى عن قوم نوح « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْى » .

(١٥) التنازع بين رجال المال ورجال الإصلاح فى حرية الكسب المطلقة أو تقييد الكسب بالحلال ومراعاة الفضيلة .

(١٦) من سننه تعالى جعل العاقبة للمتقين وذلك هو الأساس الأعظم فى فوز الجماعات الدينية والسياسية والأمم والشعوب فى مقاصدها وغلبها لخصومها ومناوئيها .

(١٧) بيان أن الاختلاف فى الدين ضرورى للعباد كما قال : « وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » .

(١٨) بيان أن نهى أولى الأحلام عن الفساد يحفظ الأمة من الهلاك كما قال : «فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الأَرْضِ »

تقدمة لتفسير سورة يوسف

رأينا أن نقدّم لك أيها القارئ صورة موجزة تبين لك حال هذا النبى الكريم والعبرة من ذكر قصته فى القرآن العظيم ، لتكون ذكرى للذاكرين ، وسلوة للقارئين والسامعين .

يوسف الصديق : مثل كامل فى عفّته

يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر ، تتلى فى صحائف الكون بكرة وعشيا ، تفسّر طيب نجاره وطهارة إزاره ، وعفته فى شبابه ، وقوّته فى دينه ، وإيثاره لآخرته على دنياه ، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المُثل العليا فى العفة والصيانة التى لا تتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ومراقبته له فى السر والعلن .

وسورته مَنْقَبة عظمى له ، وآية بينة فى إثبات عصمته ، وأفضل مثل عملى يَقْتَدى به النساء فالرجال ، فبتلاوتها يشعر القارئ بما للشهوة الحسيسة على النفس من سلطان ويسمع بأذنه تغلب الفضيلة فى المؤمن على كل رذيلة ، بقوة الإرادة ووازع الشرف والعصمة ؛ ففيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء ، فيها قصة شاب كان من أجمل الناس صورة ، وأكملهم بِنْية ، يخلو بامرأة ذات منْصِب وسلطان وهى سيدة له وهو عبدها ، يحملها الافتتان بجماله على أن تُذِلّ نفسها له ، وتخون بعلها فتراوده عن نفسه (وقد جرت العادة حتى فى الطبقات الدنيا منزلة وتربية أن يكون النساء مطلوبات لا طالبات) فيسمعها من حكمته ، ويريها من كماله وعفته ماهو أفضل درس فى الإيمان بالله والاعتصام بحبله المتين ، وفى حفظه أمانة سيده الذى أحسن مثواه فيقول : « إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » فتشعر حينئذ بالذل والمهانة ، والتفريط فى الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة .

إلا أن فيها أعظم دليل على صبره وحلمه وأمانته وعدله ، وحكمته وعلمه ، وعفوه وإحسانه ، فكفى شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقَوْه فى غيابة الجب وأخرجته

السيارة وباعوه بيع العبيد ، وكادت له امرأة العزيز فَرُجَّ فى السجن فصبر على أذى الإخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة ، إذ علم مافى الفاحشة من مفاسد ، ومافى العدل والإحسان من منافع ومصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم ، وكانت العاقبة أن نجّاه الله ورفع قدره ، وأذل العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته ، ومكّن له فى الأرض وكانت عاقبته النصر ، والملك والحكم ، والعاقبة للمتقين ، قال سبحانه : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته فقد ظهرت جليّا حين تولى الحكم فى مصر أيام السبع السنين العجاف التى أكلت الحرث والنسل وكادت توقع البلاد فى المجاعات ، ثم الهلاك المحقق لولا حكمته وعدله بين الناس والسير بينهم بالسوية وعلى الصراط المستقيم بلا جنف ولا ميل مع الهوى .

مافى قصص يوسف من عبرة

إن فى هذه القصة لعبرةً أيّما عبرة لعلْية القوم وساداتهم ، رجالهم ونسائهم ، مُجّانهم وأعفائهم ، من نساء ورجال ، فإن امرأة العزيز لم تكن من قبل غويّة ولا كانت فى سيرتها غير عادية ، لكنها ابتُليَتْ بحب هذا الشاب الفاتن الذى وضعه عزيز مصر فى قصره ، وخلّى بينه وبين أهله ، فأذلت نفسها له ، بمراودته عن نفسه فاستعصم وأبى وآثر مرضاة ربه ، فشاع فى مصر دورها وقصورها ذلها له ، وإباؤه عليها كما قال سبحانه « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

وقد ذكرنها بالوصف (امرأة العزيز) دون الاسم الصريح استعظاما لهذا الأمر منها ، ولاسيما وزوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها ، وقد طلبت الفاحشة من مملوكها

وفتاها الذى هو فى بيتها وتحت كَنَفَها ، وذلك أقبح لوقوعها منها، وهى السيدة وهو المملوك وهو التابع وهى المتبوعة ، وقد جرت العادة بأن نفوس النسوة تَعزِف عن مثل هذه الدناءة ولا ترضى لنفسها بهذه الذلة التى تشعر بالمساواة لا بالسيادة ، و بالضعة لا بالعظمة ولله فى خلقه شئون .

وقد تضمن وصف النسوة لها بهذا الوصف أنها لم تقتصد فى حبها ولا فى طلبها .

أما الأولى فقولهن فيها : « قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها (الغشاء المحيط به) وغاض فى سويدائه كما قال شاعرهم :

الله يعلم أن حبَّـــكِ منّى فى سواد الفؤاد وسْط الشغاف

وأما الثانى فقولهن : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

فلما سمعت بهذا المكر القولى قابلتهن عليه بمكر فعلىّ فقد جمعتهن وأخرجته عليهن ، فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة ، فراعهن ذلك الحُسن الفتّان ، وفى أيديهن مُدى يقطعن بها مما يأكلنه فقطّعن أيديهن وهن لا يشعرن بما فعلن مأخوذات بذلك الحسن كما جاء فى قوله سبحانه : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » .

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هتك سِتْرها وكاشفت النسوة فى أمرها وتواطأن معها على كيدها ـ آثر عليه السلام الاعتقال فى السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخنا : « قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

و إنه ليستبين من هذا القصص أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير ، تصرفه كيف شاءت وشاء لها الهوى ، إذ كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات.

قال فى الكشاف عند ذكر مارأوا من الشواهد الدالة على براءته : وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه فى الذروة والغارب ، وكان مطواعة لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ماعاين من الآيات وعمل برأيها فى سجنه لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته ، وطمعت فى أن يذلله السجن و يسخره لها اه .

و إنا لنستخلص من هذه القصة الأمور التالية :

(١) أن النقم قد تكون ذريعة لكثير من النعم ، ففى بدء القصة أحداث كلها أتراح ، أعقبتها نتائج كلها أفراح .

(٢) أن الإخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك أو الجوائح التى تكون مصدر النكبات والمصايب .

(٣) أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها ، والشواهد فيها واضحة ، والعبرة منها ماثلة ، لمن اعتبر وتدبر ونظر بعين الناقد البصير .

(٤) إن أسها ودعامتها هو خلوة الرجل بالمرأة ؛ فهى التى أثارت طبيعتها وأفضت بها إلى إشباع أنوثتها ، والرجوع إلى هواها وغريزتها ، ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة وسفرها بغير محرم ، وفى الحديث « ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما » .

وإنا لنرى فى العصر الحاضر أن الداء الدوىّ ، والفساد الخلقى ، الذى وصل إلى الغاية (وكلنا نلمس آثاره ، ونشاهد بلواه) مابلغ إلى مانرى إلا باختلاط الرجال بالنساء فى المراقص والملاهى ، والاشتراك معهم فى المفاسد والمعاصى كمعاقرة الخمور ، ولعب القمار فى أندية الخزى والعار ، وسباحة النساء مع الرجال فى الحمامات المشتركة .

وبعد فهل لهذه البلوى من يفرّج كربتها ، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامه ، وهل لهذه الجراح من آس وهل لهذه الفوضى من علاج ، ولهذه الطامة من يقوم بحمل عبئها عن الأمة ويكون فيه من الشجاعة مايجعله يرفع الصوت عاليا بالنزوع عن تلك الغواية، ويرد أمر المجتمع والحرص على آدابه إلى ماقرره الدين وسار عليه سلف المسلمين المتقين ، فيصلح أمره وتزهو الفضيلة وتنشأ نابتةٌ جديدة تقوم على حراسة الدين فى بلاد المسلمين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

هدانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .